الباب الخامس والعشرون

التواضع

[من أثبت لنفسه تواضعًا فهو المتكبر حقًّا ، إذ ليس التواضع إلا عن رفعة ، فمتى أثبتَّ لنفسك تواضعًا فأنت المتكبر] .

قلت : التواضع هو مجاهدة النفس فى وضعها وسقوطها ، فهى تريد الرفعة وأنت تريد السقوط ، فإذا حققت ونظرت بعين فكرتك وجدت الأشياء كلها مستوية معك فى الحلقة والتجلى من النملة إلى الفيل ، فالمتجلى فى النملة هو المتجلى فى الفيلة فأنت والكلب فى حقيقة الخلقة سواء ، وإنما وقع التفضيل فى التشريع والحكمة عند أهل الفرق ، فأهل الفرق يرون المزية لأنفسهم عما سواهم ، فإذا تساووا بأنفسهم مع الأشياء رأوا أنهم قد تواضعوا ، وفى الحقيقة إنما تكبروا لأنهم أثبتوا المزية لأنفسهم ورفعوها ثم أثبتوا لها التواضع ؛ فهم المتكبرون على خلق الله حقًّا ، والعارفون بالله لم يثبتوا لأنفسهم مزية قط ، رأوا الأشياء كلها سواء خلقًا واحدًا ونورًا واحدًا ، فلم يثبتوا لأنفسهم رفعًا ولاوضعًا ، فهم متواضعون من أول مرة فتواضعهم حقيقى أصلى ، فمن أثبت لنفسه تواضعًا ورأى أنها تواضعت دون قدرها ، فهو المتكبر حقًّا حيث جعل لها قدرًا زائدًا على خلق الله ، إذ ليس التواضع وإثباته للنفس إلا عن رفعة لها أولا ، فمتى أثبت لنفسك أيها الفقير تواضعا فأنت المتكبر حقًّا ، ولاتكون متواضعًا حتى ترى الأشياء كلها مثلك أو أحسن منك إن عصيت ربك .

قال أبو يزيد : مادام العبد يرى فى الخلق أشر منه فهو متكبر : ولايكون متواضعًا حتى لم يثبت لنفسه حالا ولا مقالا .

وقال بعضهم : من رأى لنفسه قيمة على الكلب فهو متكبر ممقوت عند الله ، وإنما يتضع العبد بقدر تحققه بعلو قدر سيده ، والنفس إن لم تتصف بالذل والهوان

حقيقة فهى غير مشاهدة لعظمة الله ، لأن أصل نشأة النفس الضعف والذل والهوان ، ولا صلاح إلا فى الرجوع لأصلها وتبريها من رؤية العز والجاه ومن تبريها من ذلك .

وقال الجنيد رضى الله عنه : من رأى نفسه قد تواضعت فهو يحتاج إلى تواضع ، ولو تبرأ منها ومن تواضعها لكان متواضعًا اهـ .

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّما الْكَرَمُ التَّقْوَى ، وَإِنما الشَّرَفُ التَّواضُعُ ، وَ إِنما الْغِنَى الْيَقِينُ ، وَالمتوَاضِعُونَ فى الدُّنْيَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَنابِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِذَا تَواضَعَ الْعَبْدُ رَفَعَهُ الله إِلى السَّماء السَّابِعَةِ ، وَلَا يَزِيدُ التَّواضُعُ لِلْعَبْدِ إِلَا رِفْعَةً، فَتَوَاضَعُوا لِيَرْفَعَكُمُ الله ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ المتوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ ، وإِذَا رأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةً لَهُمْ وَصَغَارًا بِهِمْ » اهـ .

أوحى الله إلى موسى عليه السلام : إنما أقبل عمل من تواضع لعظمتى ولم يتكبر على خلقى ، وألزم قلبه خوفى وقطع النهار بذكرى ، وكف نفسه عن الشهوات من أجلى ا هـ .

ثم فسر التواضع الكامل فقال :

[ليس المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه فوق ماصنع ؛ ولكن المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ماصنع] .

قلت : التواضع الحقيقى هو الذى ينشأ ممن يشاهد الأشياء كلها منه ، فإذا تواضع معها رأى أنها تستحق أكثر من ذلك التعظيم ، وأن نفسه فى الدناءة والذل دون أى أسفل مما صنع من التواضع ، وليس المتواضع الذى يرى لنفسه مزية على الأشياء ، فإذا تواضع معها رأى أن نفسه فوق وأفضل مما صنع من التواضع فهذا هو المتكبر ، لأنه أثبت لنفسه تواضعًا أكثر مما تستحقه وهذه الحكمة كأنها بيان وتتميم لما قبلها .

يحكى عن أبى الحسن بن الكرنبى أستاذ الجنيد رضى الله عنهما : أن رجلا دعاه ثلاث مرات إلى طعامه ثم يردد فيرجع إليه بعد ذلك ، حتى أدخله داره فى

المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك ؟ فقال : قد روّضت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ، ثم يدعى فيعود ، ويرمى له عظم فيجيب ، ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبتك ..

قال أبو طالب رضى الله عنه : وحدّث عن بعض الصوفية أنه وقف على رجل يأكل ، فمد يده وقال : إن كان ثم شىء لله تعالى ، فقال : اجلس فكل ، فقال : أعطنى فى كفى فأعطاه فى كفه ، فقعد فى مكانه يأكل ، فسأله عن امتناعه من الجلوس معه ، فقال : إن حالى مع الله تعالى الذل فكرهت أن أفارق حالى .

وقال السهروردى : رأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه فى سفره إلى الشام وقد بعث له بعض أبناء الدنيا طعامًا على رءوس الأسارى من الإفرنج وهم فى قيودهم ، فمدت السفرة وقال للخادم : أحضر الأسارى مع الفقراء ، فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفًا واحدًا ، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد معهم كالواحد منهم وأكل وأكلوا ، وظهر لنا على وجهه مانزل باطنه من التواضع لله والانكسار فى نفسه وانسلاخه عن التكبر عليهم .

وكان الشيخ الفقيه عبد الرحمن بن سعيد من الفقهاء والعلماء العاملين ، بينما هو يومًا يمشى فى يوم شات كثير الطين ، استقبله كلب يمشى على الطريق التى كان عليها ، قال من رآه : رأيت الشيخ قد لصق بالحائط وعمل للكلب طريقًا ووقف ينتظره ليجوز ، فلما قرب منه الكلب ترك مكانه الذى كان فيه ونزل أسفل وترك الكلب يمشى فوقه ، قال : فلما جاوزه الكلب وصلت إليه فوجدته وعليه كآبة ، فقلت له : ياسيدى رأيتك الآن صنعت شيئًا استغربته ، كيف رميت بنفسك فى الطين وتركت الكلب يمشى فى الموضع النقى ؟ فقال لى : بعد أن عملت له طريقًا تفكرت وقلت: ترفعت على الكلب وجعلت نفسى أرفع منه ، بل هو والله أرفع منى وأولى بالكرامة ، لأنى عصيت الله تعالى وأنا كثير الذنوب والكلب لاذنب له ، فنزلت له عن موضعى وتركته يمشى عليه ، وأنا الآن أخاف من الله ألا يعفو عنى ، لأنى رفعت نفسى على من هو خير منى اهـ . نقله الشيخ ابن عباد رضى الله عنه .

ثم إن التواضع منه مايكون مجاهدة وتصنعًا ، وهو مجاهدة أهل اليمين من

السائرين . ومنه مايكون اختياريًّا حقيقيًّا ، وهو تواضع العارفين ، لأنه ناشئ عن شهود عظمة المعبود فلا يتخلف إلا فى وقت الغفلة وهو قليل ، وهو الذى أبانه بقوله :

[التواضع الحقيقى : هو ماكان ناشئًا عن شهود عظمته وتجلى صفته] .

قلت : التواضع الحقيقى : هو تواضع العارفين ، لأنه ناشئ عن شهود عظمة الحق وتجلى ذاته وصفاته ، وهو من عطف التفسير ، لأن تجلى الصفات هو عين عظمة الذات وذلك أن الحق تعالى كان فى أزله القديم متصفًا بصفاته ومتسميًا بأسمائه فى خفاء ولطف لم يعرفه أحد ، فلما أراد أن يعرف أظهر بقدرته وإرادته عظمة ذاته المقدسة متصفًا بصفاته الأزلية ، فتجلت القدرة لعظمة الذات ، فشهود عظمة الذات هو شهود تجلى الصفات إليه وأشار صاحب العينية بقوله :

فَأَوْصَافُهُ وَالاسْمُ وَالْأَثَرُ الذِى
هُوَ الْكَوْنُ عَيْنُ الذاتِ وَالله جَامِعُ

فالتواضع الحقيقى : هو الذى ينشأ عن شهود عظمة الذات ونور الصفات ، فلذلك ترى العارفين يتواضعون مع الحجر والمدر وكل شىء لمعرفتهم فى كل شىء .

قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله فإنها تذوب وتصغر ، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب عنه سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها محقورة عند هيبته ، ومن أشرف التواضع ألا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى اهـ .

والحاصل : أن التواضع الحقيقى إنما هو للعارفين ، لأنهم حين شهدوا عظمة الحق خرجت عنهم أوصاف نفوسهم ، إذ لايخرج عن الوصف إلا شهود الوصف كما ذكره بقوله :

[لايخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف].

فلا يخرجك عن أوصاف نفسك الذميمة إلا شهود أوصاف ربك العظيمة ، فلا يخرجك عن دناءة نفسك إلا شهود كرم ربك ، فلا يخرجك عن شهود

أوصافك الحادثة إلا شهود أوصاف ربك القديمة ، فيخرجك عن شهود فعلك بشهود فعله ، وعن شهود صفاتك بشهود صفاته ، وعن شهود ذاتك بشهود ذاته .

وقد سئل شيخ أشياخنا القطب ابن مشيش عن حقيقة المحبة ، سأله تلميذه أبو الحسن رضى الله عنهما فقال : المحبة أخذ القلب وخطفه عند كشف نور الجمال وقُدْس الجلال . والشرب : مزج الأوصاف بالأوصاف ، والأخلاق بالأخلاق ؛ والأنوار بالأنوار ، والأسماء ، والنعوت ، والأفعال بالأفعال إلخ . فما دام العبد لم يشاهد أوصاف ربه العظيمة لايمكنه أن يخرج عن أوصاف نفسه اللئيمة خروجًا كليًّا ، وإنما يكون ذلك مجاهدة تارة له وتارة عليه ، بين طلوع ونزول ، بخلاف ما إذا شاهد أوصاف ربه فإنه يغيب عن نفسه ، قد تولاه محبوبه فكان سمعه وبصره ويده ورجله ومؤيدًا له ، فلا يتصرف إلا بالله :

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[1] وأنشدوا :

إِذَا حُزْتَ الفَخَارَ فَلَا تُبَالِ
بِنَقْصٍ فِى الجِبِلَةِ أَوْ كَمَالِ
فَمَا التَّأْنِيثُ فِى اسْمِ الشَّمْسِ نَقْصٌ
وَلَا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهِلَالِ

يشير إلى أنه إذا تحقق الفناء فى الذات والبقاء بالله فلا نقص للنفس ولاكمال ؛ وإنما الكمال للكبير المتعال ، فله الحمد والثناء على كل حال . كما قال الشيخ رضى الله عنه :

[المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرًا ، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا] .

قلت : النفس عند تحقق الفناء لاوجود لها حتى تذكر ، ولافعل لها حتى تشكر ، فليس للعارف عن نفسه إخبار حتى يخبر عنها بفعل شىء ، فضلا عن أن يشكر لها وصفًا قد استغرقه شهود فعل الحق عن فعله ، وشهود وصف الحق

---

(١) آل عمران : ١٠١ .

عن شهود وصفه ، وشهود نور ذات الحق عن شهود ذاته ، فيشغله الثناء على الله عن الالتفات إلى ماسواه ، إذ لايشهد فى الكون إلا إياه ، وتشغله حقوق الحق عن الالتفات إلى حظوظ النفس ، إذ لانفس مع الفنان فلا يبقى إلا حقوق العالم الأسنى ، فتنقلب الحظوظ فى حقه حقوقًا ، لأنهم إذا نزلوا من عش الحضرة إلى أرض الحظوظ نزلوا بالإذن والتمكين والرسوخ فى اليقين ، نزلوا بالله وإلى الله ، فليس لهم نظر إلى سواه ، قد تخلصت أرواحهم من طلب الحظوظ معجلة أو مؤجلة ، نفسانية أو روحانية ، إن صدر منهم عمل رأوه منه من الله فيستحيون أن يطلبوا عليه عوضًا أو غرضًا ، كما أبان ذلك بقوله :

[**ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضًا ويطلب منه غرضًا**] .

قلت : لاشك أن المحبة التى تكون على الحروف والحظوظ ليست بمحبة ، وإنما هى مصانعة لقضاء الحاجة ، فمن أحب أحدًا ليعطيه أو ليدفع عنه فإنما أحب نفسه ، إذ لولا غرض نفسه فيه ما أحبه .

قال أبو محمد رويم رضى الله عنه : من أحب العوض نغص العوض إليه محبوبه ، وأيضًا فطالب العوض إنما هو بائع يريد أن يعطى لينال ، والمحب مقتول فى محبة سيده لايعرّج على سوى مرضاته ، وفى معنى ذلك قيل :

بُنِى الْحُبُّ عَلَى الْجَوْرِ فَلَوْ
أَنْصَفَ الْمَحْبُوبُ فِيهِ لَسَمُجْ
لَيْسَ يُسْتَحْسَنُ فى حُكمِ الْهَوَى
عَاشِقٌ يَطْلُبُ تَأْلِيفَ الحجج

ومما لايستحسن أيضًا فى حكم المحبة والهوى ، إظهار الحزن أو الكآبة من أجل الجفاء من المحبوب ، أو الشكوى بذلك ، بل الواجب هو التجلد والتصبر على جفاء المحبوب حتى يظفر بالمطلوب ، وفى ذلك قيل :

إنْ شَكَوْتَ الْهَوى فَمَا أنْتَ مِنَّا
احْمِلِ الصَّدَّ وَالْجَفَا يَا مُعَنَّى

تَـدَّعِى مَـذْهَبَ اِلْهَـوى ثُمَّ تَشْكُـو
أىُّ دَعْوَاكَ فى الْهَوَى قُلْ لِى أيْنَا ؟
لَـوْ وَجَـدْنَـاكَ صَـابِـرًا لِهَـوَانَـا
لَأتَـيْـنَـاك كُـلَّ مَـا تَـتَـمَـنَّى

وقال آخر :

الْحُبُّ دِينِى فَـلَا أَبْغِى بِـهِ بَدَلَا
وَالْحُسْنُ مَلْكٌ مُطَاعٌ جَارَ أمْ عَدَلَا
وَالنَّفْسُ عَـزَّتْ وَلٰكِنْ فِيكَ أَبْـذُلُهَا
وَالذُّلُّ مُرٌّ وَلٰكِنْ فى رِضَـاكَ حَلَا
يَـامَنْ عَـذَابِىَ عَـذْبٌ فى مَحَبتِـهِ
لَا أَشْتَكِى مِنْكَ لَا صَدًّا وَلَامَلَلَا

وإن شئت قلت : المحبة هى أخذ الرب بقلب العبد بحيث لايلتفت إلى غيره أو أخذ جمال المحبوب بمحبة القلب حتى لايجد مساغًا للالتفات لسوى المحبوب ، فمتى وقع الالتفات نقص الحب على قدره .

قال بعض الناس لامرأة : إنى أحبك ، فقالت : وكيف وخلفك من هو خير منى ؟ فالتفت ، فقالت : قبحك الله من محب تدعى المحبة وتلتفت للغير ، وكذلك العبد إذا ادعى محبة سيده ثم أحب شيئًا ، أو استحسن شيئًا من السوى ، أو اشتكى شيئًا أو خاف شيئًا سوى محبوبه فهو ناقص المحبة أو مدعيها ، ومن ادعى ماليس فيه فضحته شواهد الامتحان .

ثم علل الشيخ كون المحبة على العوض مدخولة فقال :

[**فإن المحب من يبذل لك ، ليس المحبّ من تبذل له**] .

قلت : المحب فى الشىء هو الذى يبذل نفسه فيه وفَلْسه ، ويزهد فى جنسه من أجله ولايصح ذلك على التمام ، إلا فى جانب الذى أسبغ عليك سوابغ الإنعام . أنعم عليك أولا بالإيجاد ، وثانيًا بالأمداد ، وأعطاك كل ماتريد ،

وملكك الكون كله تتصرف فيه كما تريد . قال تعالى :

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)[1] وقال : (خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)[2] .

فهذا سبب محبة العوام .

وأما محبة الخواص فهى ناشئة عن شهود جماله وبهائه ، فغابوا فى شهود جماله وتاهوا فى حضرة بهائه ، وأنشدوا :

يَاسَاقِيَ الْقَوْمِ مِنْ شَذَاهُ الْكُلُّ لَمَّا سَقَيْتَ تَاهُوا
غَابُوا وَبِالسُّكْرِ فِيكَ طَابُوا وَصَرَّحُوا بِالْهَوَى وَفَاهُوا

فهؤلاء باعوا أرواحهم فى طلب مولاهم ، ثم استقلوا ماباعوا ، واستحيوا مما بذلوا لقلة ماأعطوا فى جانب ماطلبوا ، وفى ذلك يقول سلطان العشاق ابن الفارض رضى الله عنه :

لَوْ أَنَّ رُوحِى فى يَدِى وَوَهَبْتُهَا
لِمُبَشِّرِى بِقُدُومِكُمْ لَمْ أُنْصِفِ
مَالى سِوَى رُوحِى وَبَاذِلِ رُوحِهِ
فى حُبِّ مَنْ يَهواهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ
فَلَئِنْ رضيتَ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِى
يَا خَيْبَةَ الْمَسعى إِذَا لَمْ تُسْعِفِ

قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه : حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببته حتى لايبقى لك منه شىء .

وقال أبو يعقوب السوسى : حقيقة المحبة أن ينسى حظه من الله ، وينسى حوائجه إليه .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : المحب على الحقيقة من لاسلطان

---

(١) إبراهيم : ٣٤ .

(٢) البقرة : ٢٩ .

على قلبه لغير محبوبه ، ولامشيئة له مع مشيئته .

وقيل : أول مايقول الله للعبد : اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك ، فإن قال : لا ، ما أريد إلا أنت ، قال له : من دخل فى هذا معى فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ ورفع الحدوث ، إثبات القدم ، وذلك يوجب له العدم ، وفى معنى ذلك قيل :

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ فَانِيًا عَنْ حَظِّهِ
وَعَنِ الْغِنى والأنْسِ بِالْأَحْبَابِ
فَلِأَنَّهُ بَيْنَ الْمَنَازِلِ وَاقِفٌ
لِمَنَالِ حَظٍّ أو لِحُسْنِ مَآبِ

وبالجملة فأمر المحبة كبير ، وبحرها خطير ، وفى ذلك قالوا : ماخاضوا بحر الرياح حتى خاضوا بحر الخسارة ، لاتنال إلا بذبح النفوس ، وترك الفلوس :

إنْ تُرِدْ وَصْلنا فَموتك شَرْطٌ
لَايَنَالُ الْوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلَهْ

محاربة النفوس ومجاهدتها

فما تحقق سير السائرين ورحيلهم إلى المحبوب إلا بمحاربة النفوس ومجاهدتها وقتلها كما أبان ذلك بقوله :

[لولا ميادين النفوس ماتحقق سير السائرين] .

قلت : الميادين جمع ميدان ، بكسر الميم وبفتحها وبه صدِّر فى القاموس ، وهو مجال الخليل ، ثم استعير هنا لمحاربة النفوس ومجاهدتها ، فهى تارة تكر عليه فتظفر به ، وتارة يكر عليها فيظفر بها . وفى هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

سَايِسْ مِنَ النَّفْسِ جُهْدَكْ وَصَبِّحْ وَمَسِّ عَلَيْهَا
لَعَلَّهَا تَدْخُلْ بِيَدِّكَ فَتَعُودُ تَصْطَادُ بِهَا

فقد بين رضى الله عنه كيفية مجاهدتها ، وعلمك الحيلة فى أخذها ، وذلك أن تدخل معها شيئًا فَشَيْئًا فتعلمها الصمت وحده ، ثم العزلة ، ثم تقدمها للخراب شيئًا فشيئًا . تقدمها للقليل ، فإذا استأنست به زدتها شيئًا آخر وهكذا ؛ فأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ ، ولايعلمها البطالة ، فورده من العمل الذى تموت به لايتركه ، وقد كنت فى حالة المجاهدة إذا همت بترك وردى نادتنى هواتف الأكوان حتى كنت فى بعض الأيام تخاطبنى الصبيان : ياهذا اليهودى حين نهتم بترك وردى من السؤال ، وقد سمعت مرارًا متعددة حين نستعمل خرابًا : زد على يدك ، وتارة يقول : زد صف سبيكتك ، وتارة نسمع ياعساس حين يسرقنى شىء من الحس ، وهكذا ، وكانت مجاهدتى لنفسى كلها سياسة لم أحملها من المرة الأولى إلا ماتطيقه حتى تستأنس به ثم نزيدها حتى كنت نفعل بها مانشاء .

قال بعض العارفين : انتهى سير الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا ، وما ذكرته من السياسة للنفس والاحتيال عليها هو الصواب . قال فى المباحث :

وَاحْتَلْ عَلَى النَّفْسِ فَرُبَّ حِيلهْ أَنْفَعُ فى النُّصْرَة مِنْ قَبِيلَهْ

وأما إن حمّلها من أول مرة ما لا تطيقه فإنها تسقط وتملّ ، وربما ترجع بالكلية . قال صلى الله عليه وسلم :

« اكْلُفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَاتُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللهَ لَايَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » ، « لَايَكُنْ أَحَدُكُمْ كالْمُنْبَتِّ لَا أَرْضًا قَطَعَ ، وَلَاظَهْرًا أَبْقَى » والمنبت : هو المنقطع .

وحاصل ماذكره الشيخ فى هذه الحكمة أن الناس على قسمين :

قسم لاسير لهم ، إذ لا توجه لهم إلى الله ، فهم واقفون مع ظاهر الشريعة كل ما أباحته الشريعة أخذوه ثقيلا كان على النفس أو خفيفًا ، بل لايأخذون إلا الخفيف لأنهم يقصدون رخص الشريعة وتسهيلها مما يوافق هواهم ، فلم يغيروا من عوائدهم وشهواتهم شيئا ؛ فعزهم وافر ، وجاههم باق ، ودنياهم فى

الزيادة . وهؤلاء عوام المسلمين .

وقسم شاقت نفوسهم إلى حضرة الملك وغلبهم الشوق ، فتوجهوا إلى حضرته ، واشتغلوا بمجاهدة نفوسهم ومحاسبتها ، فكل مايثقل عليها أدخلوها فيه وهي تموت ، وكل مايخف عليها جنبوها منه وهي تبكي ، هكذا يُدومون عليها حتى ترتاض وتلين ، وحينئذ تطاوعهم فيما يريدون ، فأول مايجاهد المريد في ترك الدنيا أو التخفيف حتى لايبقى مايشغله عن ربه ، ثم في ترك الناس والفرار منهم يتنكر لمن يعرف ، ولايتعرف لمن لايعرف ، ثم في إسقاط المنزلة والجاه حتى يسقط من عين الناس ، ويسقط الناس من عينه ، ثم في الذل والانكسار قلبًا وقالبًا ، بالمشي بالحفا وتعرية الرأس وغير ذلك ؟ فإذا تحققت بالذل والتواضع والخمول والفقر وسكنت في ذلك واستحلته ، فقد تمكن منها وملكها بل ملك الكون كله :

وَنَفْسَكَ تَحْوِى بِالْحَقِيقَةِ كلِّها أَشَرْتُ بِجِدِّ الْقَوْلِ مَا أَنَا خادِعُ

فكل من ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره ، فلولا مجاهدة النفوس ومحاربتها في هذه الميادين ماتحقق سير السائرين . إذ لا يتحقق السائر من القاعد إلا بمخالفة الهوى وخرق العوائد ، فمن خرق عوائد نفسه حتى استوى عنده العز والذل والفقر والغنى ، وغير ذلك من مكروهات النفوس . فقد تحقق سيره ووصوله ، ومن لم يقدر على تغيير شعرة من نفسه فلا سير له ولاوصول .

قال أبو عثمان الحيري : لايكمل الرجل حتى يستوى قلبه في أربعة أشياء : في المنع والعطاء والعز والذل ، يعني أنه يكون عنده الذل كالعز ، والمنع كالعطاء ، لا بنقص منها .

وقال محمد بن خفيف رضي الله عنه : قدم علينا بعض أصحابنا فاعتل وكان به علة البطن ، فكنت أخدمه وآخذ منه الطست طول الليل ، قال فغفوت مرة ، فقال لي نمت لعنك الله ، فقيل له كيف وجدت نفسك عند قوله لعنك الله ؟ قال : كقوله رحمك الله .

وحكي عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال : ماسررت في الإسلام إلا ثلاث مرات معدودات : كنت في مركب يومًا وكان به رجل يحكي الحكايات

فيضحك منه الناس ، وكان يقول : رأيت وقتًا فى معركة الترك علجًا ويقول هكذا ، وكان يأخذ بلحيتى ويمد يده على حلقى والناس يضحكون منه ، ولم يكن فى ذلك المركب عنده أحد أصغر منى ولا أحقر ، فسررت بذلك . ويومًا آخر كنت جالسًا فجاء إنسان فصفعنى . ويومًا آخر كنت جالسًا فجاء إنسان وبال علىّ .

وقال بعضهم : حقيقة زوال الهوى من القلب حب لقاء الله فى كل نفس من غير اختيار حالة يكون عليها ، فإذا وجد المريد هذه العلامات فى نفسه ، فقد خرج من عالم جنسه ، ووصل إلى حضرة قدسه . وكان كما قال الشاعر :

لَـكَ الـدَّهْـرُ طَـوْعًـا وَالْأنـامُ عَبِيـدُ
فَعِشْ ، كـلُّ يَوْمٍ مِنْ أيـامِك عِيـدُ

وكما قال سيدى أبو العباس بن العريف رضى الله عنه فى هذا المعنى :

بَـدَا لَكَ سِـرٌّ طَالَ عَنْـكَ اكْتِتَـامُـهُ
وَلَاحَ صَبَـاحٌ كُنْـتَ أنْتَ ظَـلَامُـهُ
فَأنْتَ حِجَابُ الْقَلْبِ عَنْ سِـرِّ غَيبِهِ
وَلَـوْلَاكَ لَمْ يُـطْبَـعْ عَلَيْـهِ خِتَـامُـهُ
فَـإنْ غِبْتَ عَنْـهُ حَـلَّ فِيـهِ وَطَنَّبَتْ
عَلَى مَرْكَبِ الْكَشْفِ الْمَصُـونِ خِيَامُـهُ
وَجَـاء حَـدِيثٌ لَا يُمَـلُّ سَمَـاعُـهُ
شَـهِـيٌّ إلَـيْنَـا نَـشْـرُهُ وَنِـظَامُـهُ
إذَا سَمِعَتْـهُ النَّفْسُ طَـابَ نَعِيمُهَـا
وَزَالَ عَـنِ الْقَـلْبِ الْمُعَـنَّى غَـرامُـهُ

فإن لم يجد المريد هذه العلامات فليستمر على سيره ، ولايمل ولايفتر فمن عرف ماقصد هان عليه ماترك وهذا الكلام إنما هو مع من أسعده الله فوصله إلى شيخ التربية ، وأما من لم يصل إليه فلا يطمع فى السير أبدًا ولو جمع العلوم كلها

وصحب الطوائف كلها وهذا أمر ذوقى لاأقلد فيه أحدًا ، فقد صلينا كثيرًا ، وصمنا كثيرًا ، واعتزلنا كثيرًا ، وذكرنا كثيرًا ، وقرأنا القرآن كثيرًا ، والله ماعرفنا قلوبنا ، ولاذقنا حلاوة المعانى ، حتى صحبنا الرجال أهل المعانى . فأخرجونا من التعب إلى الراحة ، ومن التخليط إلى الصفا . ومن الإنكار إلى المعرفة .

قلت : قد قال الحضرمى : قد انقطعت التربية ، ومابقى إلا الهمة والحال . فعليكم بالكتاب والسنة .

قلت : لم يقصد الحضرمى انقطاعها على الأبد ، وحاشا الحضرمى أن يتحكم على الله ويعجز قدرة الله ، وإنما أراد أن فى زمانه مدعين كثيرين ، فحذر أهل زمانه منهم ، ومعرفة الحضرمى وزروق رضى الله عنهما تنافى هذا القصد ، وعلى تقدير صدورها منهما فليسا بمعصومين ، فكل كلام يردّ ويقبل إلا كلام صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم .

قد وُجد بعد الحضرمى رجال كانوا من أهل التربية النبوية بالحال والمقام والهمة لايمكن عدهم ، وهم موجودون فى زماننا هذا ، مشهورون كنار على علم ، قد هدى الله على أيديهم خلقًا كثيرًا ، وخرج على أيديهم من الأولياء ما لايعلمهم إلا من منّ عليهم بمعرفتهم .

قال فى لطائف المنن : إنما يكون الابتداء بولى دلك الله عليه ، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه ، فطوى عنك شهود بشريته وعرّفك وجود خصوصيته ، فألقيت إليه القياد ، فسلك بك سبيل الرشاد ، يعرّفك برعونات نفسك ودفائنها وكمائنها ودقائقها ، ويدلك على الجمع على الله ، ويعلمك الفرار مما سوى الله ، ويسايرك فى طريقك حتى تصل إلى الله ، يوقفك على إساءة نفسك ويعرفك بإحسان الله إليك ، فتفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها وعدم الركون إليها ، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه ، والقيام بالشكر إليه ، والدوام على ممر الساعات بين يديه .

قال : فإن قلت : فأين من هذا وصفه ؟ لقد دللتنى على أغرب من عنقاء مغرب ، فاعلم أنه لايعوزك وجدان الدالين ، وإنما يعوزك وجدان الصدق فى

طلبهم ، جد صدقًا تجد مرشدًا ، وتجد ذلك فى كتاب الله ، قال تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)[1] وقال : (فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)[2] .

فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء ، والخائف إلى الأمن ، لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك ، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته ، لوجدت الحق منك قريبًا ولك مجيبًا ، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك ، ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك اهـ .

قال الشيخ ابن عباد رضى الله عنه : وفى كلامه تنبيه على أن الشيخ من مِنَح الله وهداياه للعبد المريد ، إذا صدق فى إرادته وبذل جهده فى مناصحة مولاه ، لاعلى مايزعمه من لاعلم عنده من كونه لايشترط ، ثم قال : وعند ذلك يوفقه الله تعالى لاستعمال الأدب معه ، لما أشهده من علىّ مرتبته ورفع درجته اهـ .

وقال أيضًا فى لطائف المنن : وليس شيخك من سمعت منه ، إنما شيخك من أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك من سرت فيك إشارته ، وليس شيخك من دعاك إلى الباب ، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب ؛ وليس شيخك من واجهك مقاله ، إنما شيخك من نهض بك حاله ، شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى ، ودخل بك على المولى ، شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك ، نهض بك إلى الله فنهضت إليه ، وسار بك حتى وصلت إليه ؛ ومازال محاذيًا لك حتى ألقاك بين يديه ، فزج بك فى نور الحضرة وقال : ها أنت ذا وربك اهـ .

والسير هنا إلى الله تعالى مجازى ، عبارة عن قطع العلائق والعوائق ، وإلا فالأمر كما قال الشيخ :

[لامسافة بينك وبينه حتى تطويها ، ولاقطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك] .

قلت : هذا سؤال عن بحث مقدر ، كأن قائلا قال له : هل بيننا وبينه مسافة

---

(١) سورة النمل : ٦٢ .

(٢) محمد : ٢١ .

حتى يتحقق سير السائرين إليه ؟ فقال : لامسافة بينك وبينه إلا حجاب النفس الكثيفة ، وعلائق القلب الكونية ، فخرق عوائدها ، وقطع شهواتها . وقطع العلائق والعوائق : هو السير إلى الله ، فمن خرق عوائد نفسه زالت عنه الحجب الظلمانية ، ومن قطع علائق القلب فاضت عليه العلوم الربانية ، وأشرقت عليه الشموس العرفانية ، وهذا هو الوصول فلا مسافة بينك وبينه حسية حتى تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه ، أى لاحاجز بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك . قال تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[1] .

فما حال بيننا وبينه إلا توهم وجود نفوسنا ، فلو غبنا عنها لوجدنا أنفسنا فى الحضرة ولايمكن الغيبة عنها إلا بموتها ، وموتها فى مخالفة عوائدها .

قال الشيخ أبو مدين : من لم يمت لم ير الحق . وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : لادخول على الله إلا من بابين : إما بالفناء الأكبر الذى هو الموت الطبيعى ، أو بالفناء الأصغر الذى تعنيه هذه الطائفة .

وقال بعضهم : لايدخل على الله حتى يموت أربع موتات : الموت الأحمر : وهو مخالفة النفس . والموت الأسود : وهو احتمال الأذى من الخلق . والموت الأبيض : وهو الجوع . والموت الأخضر : وهو لبس المرقعات .

قال الشطيبى رضى الله عنه : واعلم أن طريق الحق تعالى ليس فيها مفازة ولامتاهة ، بل هى منازل وأحوال قد جعل الله لجميعها أعوانًا وأنصارًا ، وهو سبحانه يصدق وعده ، وينصر عبده ، ويهزم الأحزاب وحده ، وإنما المفاوز والمسافات فى الركون إلى المألوف ، واتباع العادات ، وفى مسامحة النفس والوقوف مع الحس والحدس ، وعند كشف الغطاء يتبين ذلك كما قال صاحب المباحث الأصلية :

وَإِنَّمَا الْقَوْمُ مُسَافِرُونْ لِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِنُونْ

---

(١) سورة ق : ١٦ .

فَـافْتَقَرُوا فِيهـا إِلَى دَلِيـلِ ذِى بَصَـرٍ بِالسَّـبْرِ وَالمَقِيلِ
قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادْ لِيُخْـبِرَ الْقَـوْمَ بِمـا اسْتَفَـادْ

إلى آخر كلامه اهـ .

وقال أيضًا : ومن الناس من تحجبه المجاهدة عن المشاهدة ، فتسطو عليه الأحوال ، فتحول بينه وبين الغاية القصوى . ومناهج الخلق متفاوتة لا تجرى على منهاج واحد . قال الله العظيم :

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)[1] (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فاسْتَبِقُوا الْخَيراتِ)[2] .

وكل شخص إنما يعبِّر عن وجهته التى خصه الله بها ، ولذلك كان النظر فى الكتب يضعف المسالك لتشعبها وكثرتها عند اختلاف الهمم ، لاسيما من جبلت طبيعته على علم الظاهر ، فإنه أبعد الناس عن الطريق ، مالم يداركه الله بفتح منه ، لأن التشريع كل حكمة تحتها حكم ، من لم يفهمها فبستانه مزهر غير مثمر ، ومن هنا وقع الإنكار حتى امتحن الله كثيرًا من الصوفية على أيدى علماء الظاهر ، عندما نسبوهم للكفر والزندقة والبدعة والضلال . وسر الخصوصية يقتضى ذلك لامحالة :

(سُنَّةَ الله التى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)[3] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلْبِسُونَ)[4] وما هلكت الأمم السابقة إلا بقولهم : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)[5] .

فتحصل أن الإنسان إذا جال مع النفس فى ميدانها ، فجاهدها حتى هذبها ، وطهرها من الأوصاف الحاجبة لها ، رجعت نفسه حينئذ إلى أصلها ، وهى

---

(١) المائدة : ٤٨ .
(٢) البقرة : ١٤٨ .
(٣) الفتح : ٢٣ .
(٤) الأنعام : ٩ .
(٥) الزخرف : ٢٣ .

الحضرة التى كانت فيها ، إذ لم تكن بينها وبين الحضرة إلا الحجب الظلمانية ، فلما تخلصت منها رجعت إلى أصلها نورًا مشرقًا فى قالب ظلمانى ، فصارت عنده ياقوتة مكنونة تطوى عليها أصداف المكنونات ، كما أبان ذلك بقوله :

[**جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ، ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وأنك جوهرة تطوى عليها أصداف مكوناته**] .

قلت : قد عظم الله سبحانه هذا الإنسان ، وجعله نخبة الأكوان ، اجتمع فيه ما لم يجتمع فى غيره ، فيه ملك وملكوت ، ونور وظلمة ، وغيب وشهادة ، وعالم علوى وسفلى ، وقدرة وحكمة ، وحس ومعنى ، فقد جعلك الله أيها الإنسان ناشئًا فى العالم المتوسط ، بين ملكه وهو بشريتك ، وملكوته وهو روحانيتك .

أو تقول : بين ملكه وهو عالم الأشباح ، وملكوته وهو عالم الأرواح ، فلست أيها الإنسان ملكيًّا فقط فتكون كالبهائم والجمادات ، ولاملكوتيًّا فقط فتكون كالملائكة ، ولكن جعلك مركبًا من ملك وملكوت ، لتظهر مزيتك بالمجاهدة والمشاهدة ؛ ولذلك خصصت بالخلافة ، وتقدمت لحمل الأمانة ، ثم متعت بالنعيم ، والنظر إلى وجهه الكريم .

ثم انقسمت الناس على قسمين :

فمنهم من غلبت بشريتهم على روحانيتهم ، وملكهم على ملكوتهم ، وظلمتهم على نورهم ، فبقوا فى ظلمة الأكوان ، ومنعوا من الشهود والعيان ، وهم عوام المسلمين .

ومنهم من غلبت روحانيتهم على بشريتهم ، ونورهم على ظلمتهم . وملكوتهم على ملكهم ، وهم الخواص العارفون السائرون إليه بمجاهدة نفوسهم فى ميدان الحرب وهو مجال الفرسان ، فمنهم السابق المقرب ، ومنهم اللاحق المحبب ، كل واحد على قدر صدقه فى محبة سيده . وظاهر كلام الشيخ أن الإنسان شىء زائد على البشرية والروحانية ، لأنه قال : جعلك الله فى العالم المتوسط بين الملك وهو البشرية والملكوت وهو الروحانية ، فيقتضى أنه شىء ثابت بينهما .

والتحقيق أن الإنسان هو المجموع من الجسد والروحٍ ، فهو بنفسه عالم

متوسط : أى مركب من ملك وملكوت ، فلو قال جعلك عالما متوسطًا بين مُلكه وملكوته لأفهم المراد بسهولة ، أى لست ملكًا فقط ولاملكوتًا فقط ، بل جعلك متوسطًا بينهما أى مركبًا منهما ، كقوله عليه الصلاة والسلام :

« كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاء وَالطِّين » .

أى مركبًا منهما دون روح ، ولكن عبارة الشيخ فيها إلغاز وتدقيق إشارة ، وعلمنا كله إشارة ، وإنما جعلك بين ملك وملكوت ؛ ليعلمك جلالة قدرك وفخامة أمرك . قال تعالى :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)[1] وقال : (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فى أَحْسَنِ تَقْويم)[2] .

وليعلمك أيضًا أنك جوهرة نفيسة مصونة فى صدف نفيس ، وهو الكون بأسره ، فتطوى عليك أصداف مكوناته من عرشه إلى فرشه ، فأنت أيها الإنسان كالياقوتة فى صدف ، الأرض تقلك ، والسماء تظلك ، والجهات تكتنفك ، والحيوانات تخدمك وتنفعك ، والجمادات تدفع عنك ، وأنت فى وسط الجميع ، فالأفلاك دائرة بك ، والشمس والقمر منيران لما أنت فيه ، فأنت جوهرة الصدف ، ولباب الكون ، ومداره عليك .

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : الأكوان كلها عبيد مسخرة وأنت عبد الحضرة .

وقد ورد فى بعض الكتب : يا بن آدم أنا بدُّك اللازم فالزم بدك .

وفى بعض الآثار المروية عن الله عز وجل : يا بن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له .

وقد قالوا فى عجائب الإنسان : إن الوجود كله منطو فيك ، فهو نسخة من العالم الأكبر .

ومما ينسب لأبى العباس المرسى رضى الله عنه :

---

(١) الإسراء : ٧٠ .

(٢) التين : ٤ .

يَـا تَـائهًـــا فى مَهْمـةٍ عَـــنْ سِـرِّهِ
انـظُرْ تَجِـدْ فِيـكَ الْـوُجُـودَ بِـأسْـرِهِ
أنْت الْكـمَـــالُ طَــرِيقَـــةً وَحَـقِيـقَـــةً
يَـــا جَـــامِعًـا سِـرَّ الإِلَـــهِ بِـأسْـــرِهِ

وقال فى المباحث :

يَاسَابِقًا فى مَوْكِبِ الإِبْدَاعِ وَلَاحِقًا فى جَيْشِ الاخْتِرَاعِ
اعْقِلْ فَأَنْتَ نُسْخَةُ الْوُجُودِ للهِ مَا أَعْلَاكَ مِنْ مَـوْجُودِ
أَلَيْسَ فِيكَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَالْعَـــالَمُ الْعُلْوِيُّ وَالسُّـفْـــلِيُّ
مَا الْكَوْنُ إِلَّا رَجُـلٌ كَبِيرُ وَأَنْتَ كَـــوْنٌ مِثْلُهُ صَغِـــيرُ

قلت : إنما يكون الإنسان نسخة من العالم أو كونًا صغيرًا ، مالم تغلب روحانيته على بشريته ، ومعناه على حسه ، ونوره على ظلمته . وأما إن غلبت روحانيته على بشريته ومعناه على حسه ، فقد صار حينئذ ملكوتيًّا جبروتيًّا ، قد استولى على الكون بأسره وصار هو العالم الأكبر والكون نسخة منه ، وفى ذلك يقول ابن الفارض رضى الله عنه :

وإنِّى وَإِنْ كُـنْـتُ ٱبْـنَ آدَمَ صُـــورَةً
فَـــلِي فِيـهِ مَعْنًى شَـــاهِـدٌ بِـــأُبُـــوَّتى

إذ الروح لم يسعها أرض ولاسماء ؛ كما بين ذلك بقوله :
[وسعك الكون من حيث جثمانيتك ؛ ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك] .

قلت : الروح إذا تصفت وتطهرت من كدرات الحس عرجت إلى عالم الجبروت ، فلم يحجبها عن الله أرض ولاسماء ، ولا فلك ولا عرش ولاكرسى ، بل يصير ذلك فى جوفها كشىء تافه وهذا أمر مذوق عند العارفين ، إذا نظروا إلى الكون بأسره ذاب ورجع ماء ، فإذا شربوه صار فى قلوبهم كنقطة . وهم

متفاوتون فى إحاطتهم بالكون ، فمنهم من يصير عنده كالبيضة ، ومنهم من يصير عنده كالخردلة ، وذلك بحسب اتساع النظرة وضيقها ، فكلما جالت الروح فى بحر الجبروت صغر الكون عندها حتى لاتحس به ولذلك قال بعضهم : لو كان العرش فى زاوية من زوايا العارف ماأحس به .

وقال آخر : العرش والكرسى منطبعان فى ترس ، وقال شيخ أشياخنا مولاى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه : والعرش والكرسى فى طى قبضتى ، ثم يتلاشى الكون ويضمحل ويتصل عالم الملكوت بعالم الجبروت ، فلا بقاء إلا للحى الذى لايموت ، وهذا لايفهمه إلا العارفون الذين غلبت روحانيتهم على بشريتهم ، فصاروا روحانيين ملكوتيين ، أشباحهم مع الخلق ، وأرواحهم مع الحق ، فقد وسعك أيها الإنسان الكون ، وحصرك من حيث جثمانيتك وبشريتك وهيكلك المحصور ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك ، لأن روحك متصلة بعالم الجبروت المحيط ، فلما تكثفت وانحصرت فى هذا الهيكل لزمتها القهرية ، فانحجبت بالحكمة ، وتقيدت بالقدرة ؛ فما دامت البشرية كثيفة بحب الشهوات والعوائد فهى محجوبة ، فإذا تلطفت بذكر الله وانخرق عنها حجاب الحس ، رجعت إلى أصلها فاتصلت ببحرها ، فصار الملكوت والملك فى طى قبضتها ؛ فلم يسعها حينئذ أرض ولاسماء ، ولايحصرها عرش ولافرش ، ولذلك قيل : الصوفى لاتقله الأرض ولاتظله السماء .

وفى الحديث القدسى : « يَقولُ اللهُ تَعَالى : لَمْ تَسَعْنِي أرضِى وَلاَسَمَائى ، وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِى المُؤمِنِ » .

أى الكامل وهو العارف ، والله تعالى أعلم .

فالجبروت هو المعانى اللطيفة القديمة التى لم تدخل عالم التكوين . والملكوت مادخل عالم التكوين باعتبار جمعه ولحوقه بأصله . والملك مادخل التكوين واعتقد فيه الفرق ، وأهل الجمع لاملك عندهم ، وإنما عندهم الملكوت والجبروت ، فما داموا يفرقون بين النور اللطيف والنور الكثيف ، فعندهم الملكوت والجبروت ، فإذا ضموا كل شىء إلى أصله لم يبق إلا الجبروت ، وأهل الفرق أثبتوا الملك بوهمهم وحجبوا به عن الله .

(وَالله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)[1] .

فما دام العبد مسجونًا بالكون محصورًا فى بشريته فهو فى سجن الأكوان . فإن نفذت بصيرته وعرجت روحه إلى الملكوت خرج من السجن إلى الفَضاء ، كما بين ذلك بقوله :

[الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته محصور فى هيكل ذاته] .

قلت : ميادين الغيوب ، هى ماأدركته الروح حين خرجت من ضيق الأشباح إلى عالم الأرواح ، ومن فضاء الشهود إلى معرفة الملك المعبود ، فما دام الإنسان فى الكون بحيث لايشهد إلا الكون ، ولايدرك إلا الحس ولم تفتح له ميادين الغيوب : أى لم يخرج إلى فضاء الشهود ، فهو مسجون بمحيطاته ، أى بالأكوان المحيطة به كالسموات والأفلاك الدائرة به ، فهو فى سجن الأكوان محصور أيضًا فى هيكل ذاته ، أى فى شكل بشريته وكثائف جسمه . فإذا غلبت روحانيته على بشريته فقد خرجت من حصر الهيكل وإذا نفذت بصيرته إلى فضاء الملكوت أو بحار الجبروت ، فقد خرجت من سجن الأكوان إلى شهود المكون ، فحينئذ تتحرر من رق الأكوان ، وتحظى بنعيم الشهود والعيان .

وأما مادام محصورًا فى الهيكل مسجونًا فى الأكوان ، فهو محجوب عن الله ولو كان عالمًا بالعلوم الرسمية متبحرًا فيها ، إذ لايزيده التغلغل فيها إلا حجابًا عن الله. وقد قال الشيخ أبو الحسن : التغلغل فى علم الظاهر يضر بصاحبه فى علم الخصوص أو ما هذا معناه .

وقال فى قوت القلوب : كل من لم يفتح له فى هذا العلم الباطن فهو من أهل اليمين ، وكل من فتح له فى علم الباطن فهو من المقربين السابقين اهـ . وهو ظاهر ، لأن علم الرسوم لايخرجه من سجن الأكوان ، فهو من الأكوان على الدوام ، وإذا كان مع الأكوان فاته شهود المكون كما قال الشيخ رضى الله عنه :

[أنت مع الأكوان ما لم تشهد الملكوت فإذا شهدته كانت الأكوان معك] .

---

(١) يوسف : ٢١ .

قلت : مادام العبد مقيدًا فى سجن الأكوان ومحصورًا فى هيكل جسمه فالأكوان حاكمة عليه ، فهو يحبها ويعشقها ، وهى تبغضه وتبعده عن ربه ، وهو يفتقر إليها وهى غنية عنه ، وهو يميل إليها ويحرص عليها ، وهى تفر منه وهو يخاف منها ويهابها ، وهى تخوفه وترعبه ، فإذا شهد مكونها وغاب وتحرر من رقها كانت حينئذ هى خادمته وهو حاكم عليها ، وهى تحبه وتعشقه ، وهو مشغوف بحب خالقها وهى تفتقر إليه وهو غنى عنها ، وهى تحرص عليه وهو زاهد فيها ، وهى تخاف منه وتهابه وهو فى أمن منها فالجنة تشتاق إليه وهو غنى عنها .

وفى الحديث : « اشْتَاقَتِ الْجَنَّةُ إِلَى عَلِيٍّ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ » .

كانوا من أهل الصُّفة ، والنار تهابه وهو فى غيبة عنها . وقد ورد فى الحديث أنها تقول يوم القيامة :

« جُزْ يَامُؤْمِنُ فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِى » أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فأنت أيها الإنسان محبوس مع الأكوان فى عالم الأشباح ، مقيد فى قيودها ، فهى حينئذ تتصرف فيك كيف شاءت ، حين تكون تحبها وتحرص عليها وتشتاق إليها كائنة ماكانت ، شهادية أو غيبية ، مالم تشهد المكون وتعرفه ، فإذا شهدت المكون وعرفته كانت الأكوان معك ، لأنك تكون حرًّا عنها وهى مملوكة لك ، لاتحب منها شيئًا من حيث كونيتها ، ولاتخاف منها شيئًا كذلك ، لأنك قدَ رحلت عنها إلى عالم الأوراح فحينئذ تكون فى قبضتك تتصرف فيها كيف شئت ؛ لأنك حينئذ تصير خليفة الله فى أرضه ، الكون كله فى قبضتك وعند همتك ، لأنك علقت همتك بالله فصيّر الأشياء عند همتك .

وفى بعض الآثار المروية عن الله عز وجل يقول : عبدى اجعلنى مكان همك أكفِك كلَّ همك ، ماكنتَ بك فأنت فى محل البعد ، وماكنتَ بى فأنت فى محل القرب ، فاختر لنفسك .

وقال بعض الأشياخ : إنى لأدخل السوق والأشياء كلها تشتاق إلى وأنا غنى عنها .

وقال ابن الجلا رحمه الله : من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكوِّنها ،

ومن وقف بهمته على شيء دون الحق فقد حجب به عنه ، لأنه أعز من أن يرضى معه بشريك اهـ .

فمن رفع همته عن الأكوان ومتع بشهود المكون ، فقد ثبتت له الخصوصية الكبرى والولاية العظمى ، ولايلزم من رفع الهمة عن الأكوان استغناؤه عما تحتاج إليه البشرية مما يقوم به وصفها اللازم لها ، وإليه أشار بقوله :

[لايلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية] .

المراد بالوصف البشرى : ماجعله الله محتاجًا إليه بحكمته فى قوام بدن الإنسان من أكل وشرب ولباس ومسكن ، ومافطره عليه من شهوة مباحة كنكاح وشهوة غير محرمة ، فهذه الأوصاف لاينافى وجودها وجود الخصوصية ، فقد قال تعالى فى الرسل :

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ)[1] وقال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً)[2] .

نعم وصف البشرية فى حق أهل الخصوصية ليس هو كغيرهم ، لأن أهل الخصوصية أمرهم كله بالله ، انقلبت حظوظهم حقوقًا ، بخلاف غيرهم أنفسهم غالبة عليهم ، فتقلباتهم كلها فى حظوظ أنفسهم .

فإذا تقرر هذا علمت أنه لايلزم من ثبوت الخصوصية وهى الولاية والمعرفة أو الحرية ومعناها واحد عدم وصف البشرية ، فالخصوصية محلها البواطن ، ووصف البشرية محلها الظواهر ، ولذلك اختفت الأولياء والأنبياء والرسل عن الناس ، لظهور أوصاف البشرية عليهم ، فكيف تعرف رجلا يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب وينام ويتزوج النساء ، فلايعرفهم إلا من أراد الله سعادته ، وما وقع الإنكار على الأنبياء والأولياء إلا لاعتقادهم أن أوصاف البشرية تنافى ثبوت الخصوصية ، فقد قال الكفار فى حقه عليه الصلاة والسلام :

(وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأكلُ الطَّعَامَ وَيَمْشى فِى الْأَسْواقِ)[3] .

---

(١) الفرقان : ٢٠ . (٢) الرعد : ٣٨ . (٣) الفرقان : ٧ .

فرد الله تعالى عليهم بعدم تنافيهما فقال :

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) الآية .

فهذه الأوصاف التى ذكرنا لاينفك الطبع البشرى عنها ، وهى موجودة مع خصوصية النبوة والولاية .

وأما الأوصاف التى هى مذمومة : كالحسد ، والكبر ، والبغض ، والعجب ، والرياء ، والغضب ، والقلق ، وخوف الفقر ، وهم الرزق ، والتدبير والاختيار ، وغير ذلك ، فهذه لابد من التطهير منها فى خصوصية النبوة والولاية ، وقد تقدم قوله : اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك ، لتكون لنداء الحق مجيبًا ، ومن حضرته قريبًا .

أما فى حق النبى فتطهيره منها واجب ، لأنه معصوم من جميع النقائص . وأما فى حق الولى فليس بواجب لكنه محفوظ ، فقد يصدر منه شىء من هذه الأوصاف المذمومة على سبيل الهفوة والزلة ، ولاتنافى وجود خصوصيته ، لكنه لايصر عليها ولايدوم فيها ، فقد يصدر من الولى الغضب مثلا ، والقلق والتدبير والاختيار ، وغير ذلك ، لكنه كالريح يضرب ويسرح .

قال فى النصيحة الكافية : وقد تكون للولى هفوة وهفوات وزلة وزلات ، ولكن لايصرُّ عليها .

وقيل للجنيد : أيزنى العارف ؟ فسكت ثم قال :

(وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)[1] .

قال ابن عطاء الله : ليت شعرى ، لو قيل له : أتكون همة العارف مع غير الله ؟ لقال : لا اهـ .

ثم ضرب مثلا لنور الخصوصية مع ظلمة البشرية الحسية فقال :

[إنما مثل الخصوصية إشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق ، وليست منه ، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك ، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك ، فالنهار ليس منك إليك ولكنه وارد عليك] .

---

(١) الأحزاب : ٣٨ .

قلت : مثل الربوبية الذى أشرقه الله فى قلوب أوليائه وستره بظهور البشرية ، كمثل نور الشمس إذا أشرق على الآفاق ، وهو الفضاء الذى بين السماء والأرض ، فإن الفضاء قبل ظهور الشمس مظلم ليس فيه نور ، فإذا أشرقت عليه الشمس رجع نورًا صافيًا ، فنورانيته ليست من ذاته ، وإنما هى من الشمس ، كذلك نور الربوبية هو مستودع فى باطن البشرية ، فإذا أراد الله تعالى أن يظهر خصوصية عبده أشرق ذلك النور على ظاهر بشريته فتستولى روحانيته على بشريته فلا يبقى للبشرية أثر ، فتصير البشرية كلها نورًا ، فنور البشرية ليس منها ولكنه وارد عليها ، فتارة تشرق شموس أوصافه وهى الوجود والقدم والبقاء وسائر أوصافه السلبية ، والوجودية والمعانى والمعنوية على ليل وجودك الظلمانى الكثيف ، فتذهب أوصافك الحادثة العدمية بظهور أوصافه القديمة الأزلية ، فيتحقق الوصال ، ويذهب الانفصال ، وتارة يقبض ذلك النور ويغيبه عنك ويرده إلى باطنك ، فترجع إلى شهود عبوديتك ، ويردك حدودك ، وهذا حال الوارد الإلهى إذا فاض على الإنسان غيبه عن نفسه واقتطعه عن حسه ، فلا يرى إلا أوصاف ربه وينكر وجود نفسه من أصله ، فإذا سكن الوارد رجع إلى شهود نفسه بربه ورجع ذلك النور إلى باطنه ، فيكون باطنه نورًا على الدوام ، وظاهره تارة يغلب عليه ذلك النور ، وتارة تغلب عليه الظلمة : أى العبودية ، فنور الوارد ليس من الإنسان من حيث بشريته ، ولكنه وارد عليه من حيث روحانيته ، كما أن نور الأفق ليس هو من ذات الأفق لكنه وارد عليه من إشراق شمس النهار عليه . وهاهنا مثال آخر ، وهو الحديد والفحمة إذا جعلتها فى النار ونفخت عليهما ، فإنهما يرجعان من جنس النار ؛ وتكسو النار الحديد كله والفحمة كلها ، فإذا بردا رجع الحديد حديدًا والفحمة فحمة ، كذلك البشرية إذا استولت عليها الروحانية صارت كلها روحانية معنوية ، فلا ترى إلا المعانى ولاتحس إلا إياها .

واعلم أن الناس فى هذا النور على ثلاثة أقسام : قسم نوره حده الباطن ، ولم يصعد من شعاعه شىء لظاهره وهم العوام . وقسم استولى نورهم على ظاهرهم وباطنهم ، وهم المجذوبون فى حضرة الله . وقسم امتلأ باطنهم نورًا وصعد شعاعه

على ظاهرهم ، فاستولى على الظاهر على الدوام ، وهم السالكون بعد الجذب الراسخون فى المعرفة ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الطريقة الموصلة إلى الخصوصية فقال :

[دل بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه ، وبوجود أوصافه على وجود ذاته ، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه] .

قلت : هذه طريقة الترقى ، فوجود الأثر يدل على وجود القادر والمريد والعليم والحق مثلا ، فالقادر يدل على قيام القدرة به بحيث لاتفارقه ، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه ، فلزم من وجود الأثر وجود المؤثر . وهنا افترق أهل الظاهر من أهل الباطن .

فأهل الظاهر أثبتوا من وجود الأثر وجود الأسماء والصفات ، ولم يقدروا على شهود الذات ، غلبهم الحس عن شهود المعنى ، والوهم عن ثبوت العلم ، وشهود الحكمة عن شهود القدرة .

وأهل الباطن لما فرغوا قلوبهم من الأغيار ، وباعوا نفوسهم للواحد القهار ، فتح الله عين بصيرتهم وأطلعهم على مكنون سره ، فأفردوا الحق بالوجود . وانتفى عن بصيرتهم نظرهم كل موجود ، إذ محال أن يفارق الصفة موصوفها أو تقوم بنفسها ، فلزم من وجود الصفات وجود الذات ، وهذا هو سر الخصوصية التى خص الله بها أولياءه ولم يشاركهم فيه غيرهم .

الفرق بين أهل الجذب والسلوك

ثم بين أهل الجذب من أهل السلوك . وأهل التدلى من أهل الترقى فقال :

[فأهل الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته ، ثم يردهم إلى شهود صفاته ، ثم يردهم إلى التعلق بأسمائه ، ثم يردهم إلى شهود آثاره . والسالكون على عكس هذا ، فنهاية السالكين بداية المجذوبين ، لكن لابمعنى واحد ؛ فربما التقيا فى الطريق ، هذا فى ترقيه وهذا فى تدليه] .

قلت : عباد الله المخصوصون بسر الخصوصية هم فى سيرهم على قسمين :

منهم من يبدأ بالجذب ثم يرد إلى السلوك . ومنهم من يبدأ بالسلوك ثم يدركه الجذب ثم يصحو ، فأرباب الجذب يكشف لهم أولا من غير مجاهدة عن شهود الذات ، فيسكر بشهود نورها ، فينكر الواسطة أصلا ، وينكر الشرائع إلا أنه مغلوب ، ثم يردّ من شهود الذات إلى شهود الصفات ، فلا يرى إلا صفات الحق تكثفت وظهرت وينكر الأثر ، ثم إذا شهد الصفات تعلق بالأسماء اللازمة لها ، ثم يرجع إلى شهود آثاره فيقوم بأحكام عبوديته .

والسالكون على عكس هذا ، فيستدلون بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على وجود صفاته ، وبوجود صفاته على وجود ذاته كما تقدم .

فنهاية السالكين وهى شهود الذات بداية المجذوبين ، ونهاية المجذوبين وهى شهود الأثر بداية السالكين ، ولكن ليس بمعنى واحد ، بل أحدهما نازل يشهد الأشياء بالله والآخر صاعد يشهد الأشياء بنفسه لله ، فربما التقيا فى الطريق : كشهود الصفات والتعلق بالأسماء مثلا ، هذا فى ترقيه ، وهذا فى تدليه ، فإذا وصلا معًا اجتمعا لأن المرتقى يرجع للأثر الذى انتهى إليه المجذوب بعد شهود الذات ويكون رجوعه بالله ، فيجتمعان معًا فى مقام البقاء ، والمترقى أكمل من المتدلى فى التربية ، لأنه قاسى شدائد الطريق وأهوالها بخلاف المجذوب فإنه كان محمولا وهو نادر ، إذ الغالب على الناس السلوك ثم الجذب ، والطريق الشاذلية الغالب عليها الجمع بين الجذب والسلوك من أول قدم ، ومعنى الجذب هو اختطاف الروح من شهود الكون إلى شهود المكون .

واعلم أن الناس فى الجملة على أربعة أقسام : سالكون فقط ، مجذوبون فقط ، سالكون ثم مجذبون ، ومجذوبون ثم سالكون . فالأولان لا يصلحان للتربية والإرشاد . أما السالك فقط ، فلأنه ظاهرى محض فلا نور له فى باطنه يجذب به . وأما المجذوب فقط فلا سلوك عنده يسير به ، والآخران يصلحان للتربية مع أفضلية الأول .

واعلم أيضًا أن حقيقة السلوك الأول هو شهود خلق بلا حق ، وحقيقة الجذب هو شهود حق بلا خلق . وحقيقة السلوك الثانى : هو شهود خلق بحق ، والله تعالى أعلم .

ثم مايدركه الواصل من أنوار الشهود والعيان ليست هى حسية يدركها كل إنسان ، وإنما هى معان قلبية وأسرار باطنية ملكوتية . كما أبان ذلك بقوله :

[لايعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا فى غيب الملكوت ، كما لا تظهر أنوار السماء إلا فى شهادة الملك] .

قلت : اعلم أن الناس كلهم عندهم النور فى قلوبهم ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ » .

أى على أصل النشأة الأولية ، وهى القبضة النورانية . وقال تعالى :

(اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ) .

قال أهل تفسير الظاهر : أى نور أهل السموات والأرض ، وهو عام فى كل موجود فيهما ، فقد تحقق أن النور سار فى الجميع ، فمن الناس من حجب عن هذا النور وعمى عنه ، وهو من وقف مع ظاهر الملك ، وهو قشر الكون وحسه الظاهر ، ويسمى عالم الأشباح ولم ينفذ إلى باطنه وهو الملكوت ؛ ويسمى عالم الأرواح ، فهذا محجوب عن نوره الباطنى لايرى إلا النور الحسى ، لأنه مسجون فى سجن الأكوان ، محصور فى ظلمة الحس والوهم . ومن الناس من نفذت بصيرته إلى شهود النور الباطنى فيه ، ولم يقف مع القشر ، بل نفذ إلى شهود اللب وهو نور الملكوت وأسرار الجبروت ، وهو الذى أشار إليه فى المباحث بقوله :

مَهْمَا تَعَدَّيْتَ عَنِ الْأَجْسَامِ أَبْصَرْتَ نُورَ الْحَقِّ ذَا ابتسام

وهذا النور أيضًا هو الذى تراه قلوب العارفين دون الغافلين كما أشار إليه الحلاج بقوله :

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ تَرَى مَالاَ يُرى لِلنَّاظِرِين

فإذا تحققت هذا علمت أنه لايعلم بالبناء للمفعول : أى لايظهر قدر أنوار القلوب الغيبية وشرفها ، وأنوار الأسرار القدسية وكمالها إلا فى غيب الملكوت والجبروت ، فأنوار القلوب لايعلم قدرها إلا فى غيب الملكوت ، وهى الأنوار

المتدفقة من بحار الجبروت ؛ فمن لم ينفذ إلى شهود الملكوت لم يعلم قدرها ، بل لم يعرفها أصلا ، وأنوار الأسرار لايعلم قدرها إلا فى غيب الجبروت ، وهى الأنوار الأصلية الأزلية ، وهو ما لم يدخل عالم التكوين ، فمن كان محجوبًا فى عالم الملك لايعلم قدر أنوار الملكوت ولايحس بها ، بل ينكرها كما شهدناه ممن يدعى الخصوصية وهو بعيد منها ، ومن كان واقفًا مع أنوار الملكوت لايعلم قدر أنوار الجبروت ، ومن نفذ منها شهد الجميع ، وكما لاتظهر الأنوار الغيبية إلا فى غيب الملكوت أو الجبروت ، كذلك لاتظهر أنوار الملك وهى الأنوار الحسية إلا فى عالم الشهادة وهو عالم الحس ، ويسمى عالم الملك .

والحاصل : أن أنوار القلوب هى أنوار الملكوت ، وأنوار الأسرار هى أنوار الجبروت وهى غيبية لايعلم قدرها من ترقى إلى عالم الملكوت أو الجبروت ، فحينئذ يدركها ويعلم قدرها علمًا وحالا ، والله تعالى أعلم .

تنبيه : قد رأيت كثيرًا ممن شرح هذا الكتاب غلط فى تفسير الملك والملكوت والجبروت ، فزعموا أن الملك هو عالم الدنيا ، والملكوت هو عالم الآخرة ، والجبروت مالايعلمه أحد وهذا غلط ، إذ لو كان كما زعموا ماصح الترقى من ملك إلى ملكوت وإلى جبروت ، إذ يلزم على تفسيرهم أن الملك لايرجع ملكوتًا والملكوت لايصير جبروتًا وهو غير سديد ، إذ قد نص كثير من المحققين أن أهل الملكوت لايرون الملك أصلا ، وأهل الجبروت يحجبون عن الملكوت ، هكذا ذكره النقشبندى فى شرح الهائية .

والصواب : أن المحل واحد وهو الوجود الأصلى والفرعى . فما لم يدخل عالم التكوين من عظمة البارى تعالى فهو عالم الجبروت . ومادخل التكوين فمن ألحقه بأصله وجمع فيه فهو فى حقه ملكوت ، ومن فرقه وحجب به فهو فى حقه ملك ، فتحصل أن المحل واحد والأمر إنما هو اعتبارى تختلف التسمية باختلاف النظرة وتختلف النظرة باختلاف الترقى فى المعرفة ، فمن وقف مع الكون كان فى حقه ملكا . ومن نفذ إلى شهود النور الفائض من الجبروت إلا أنه رآه كثيفًا نورانيًّا ولم يضمه إلى أصله فى اللطافة سمى فى حقه ملكوتًا ، ومن ضمه إلى أصله ولم يفرق بين النور الكثيف سمى جبروتًا . وقد حققت ذلك فى قصيدتى

التائية وتقدم بعضها ، وكذلك فى شرح التصلية المشيشية ، والله تعالى أعلم .

ولابد لمن أراد أن تكشف له هذه الأنوار ويدرك هذه المقامات ، من وجود أعمال ومقاساة أحوال ، فإذا عمل عملا وذاق حلاوته ، فليستبشر بالفتح الذى هو جزاء السائرين ، وهو الذى أشار إليه بقوله :

[**وجدان ثمرات الطاعة عاجلا ، وبشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلا**] .

قلت : من وجد فى بدايته حلاوة مجاهدته فليستبشر بوجود مشاهدته ، ومن لم يجدها فلا ييأس من روح الله ، فإن لله نفحات تهب على القلوب ، فتصبح عند علام الغيوب .

أو تقول : من وجد ثمرة عمله فى الدنيا فليستبشر بوجود الجزاء آجلا فى الآخرة ، وقد تقدم هذا للشيخ مرارًا ، وهذا الجزاء الذى يستبشر به لاينبغى قصده ولاطلبه ، لئلا يكون ذلك قدحًا فى الإخلاص ؛ كما أبان ذلك بقوله :

[**كيف تطلب العوض على عمل وهو متصدق به عليك ؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك ؟**] .

قلت : العبد إنما هو آلة مسخرة ، فإذا سخره ربه تحرك وإلا فلا . وإذا كان كذلك فلا نسبة لك فى العمل إلا ظهوره عليك حكمة ، فكيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك ؟ وإذا مَنَّ عليك بصدق العبودية وهو سر الإخلاص فكيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه إليك ؟ وعبر فى جهة العمل بالصدقة التى تكون للمحتاجين وفى جهة الصدق بالهدية التى تكون للمحبوبين ، لأن العمل الناس مشتركون فيه ، إذ جل الناس فى العمل والإخلاص قليل ، وأهله أقل من القليل وهم الخواص ، أو خواص الخواص .

قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَما أَنَا نِعْمَةٌ مُهْدَاةٌ » :

الأنبياء لأممهم عطية ونبينا لنا هدية ، والعطية للمحتاجين ، والهدية للمحبوبين . وقال الواسطى رضى الله عنه : مطالبة الأعواض على الطاعة من نسيان الفضل . وقال أبو العباس بن عطاء : أقرب الأشياء إلى مقت الله رؤية

النفس وأفعالها ، وأشد من ذلك مطالبة الأعواض على أفعالها اهـ .

وأعظم الأعمال التى توجد ثمرتها عاجلا وآجلا هو ذكر الله ، وثمرته هو النور الذى يشرق فى القلب فيضمحل به كل باطل .

والناس فى هذا النور على قسمين : قسم سكن النور قلوبهم فهم ذاكرون على الدوام ، وقسم يطلبون وجوده بأذكارهم ، وإلى هذا أشار بقوله :

النور ثمرة الذكر

[قوم تسبق أنوارهم أذكارهم وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم] .

قلت : أما القوم الذين تسبق أنوارهم أذكارهم فهم الواصلون .

وأما الذين تسبق أذكارهم أنوارهم فهم السائرون الأولون ، لهم أنوار المواجهة لاتفارقهم ، فهم ذاكرون على الدوام . فإذا أرادوا أن يذكروا باللسان سبقت إلى قلوبهم الأنوار ، فكانت هى الحاملة لهم على وجود الأذكار .

وأما الآخرون فلهم أنوار التوجه ، وهم طالبون لها محتاجون إليها ، فهم يجاهدون أنفسهم فى طلب تلك الأنوار .

ثم بين حال الفريقين فقال :

[ذاكرٌ ذكَر ليستنير قلبه ، وذاكر استنار قلبه فكان ذاكرًا] .

قلت : فالذى ذكر ليستنير قلبه هو الذى يسبق ذكره نوره ، فهو من القوم الذين تسبق أذكارهم أنوارهم ، والذى استنار قلبه فكان ذاكرًا هو الذى يسبق نوره ذكره ، فهو من القوم الذين تسبق أنوارهم أذكارهم وهم العارفون بالله ، لاتجدهم إلا فى حضرة الله بين ذكر أو فكرة أو نظرة أو إرشاد إلى الحضرة فقلوبهم ممتلئة بالأنوار ، وأرواحهم دائما فى حضرة الأسرار .

ثم إن وجود الذكر فى الظاهر عنوان وجود الشهود فى الباطن ، إذ لولا وارد ما كان ورد وهو الذى أبانه بقوله :

[ماكان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود أو فكر] .

قلت : إذا كان الظاهر مشتغلا بذكر الله فهو علامة وجود محبة الله فى

الباطن ؛ إذ من أحب شيئًا أكثر من ذكره ، ولاتكون المحبة إلا عن ذوق ومعرفة ، فلا يكون ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود ، أى شهود كان وإن كان لايشعر بشهوده ، فما ذكرت الروح حتى فنيت ، ولا فنيت حتى شهدت ، فكل من فنى فى ذكر الله فإن روحه شهدت جمال الحضرة ، أو تفكرت فى جمال المذكور وبهائه ، أو فى حسن ثوابه وجزائه .

فتحصل أن وجود الذكر فى الظاهر ناشئ إما عن شهود فى الباطن وهو حال المريدين أو العارفين ، أو ناشئ عن فكرة وهو حال الطالبين للجزاء . فإن الناس فى الذكر على ثلاثة أقسام : قسم يطلبون الأجور ، وقسم يطلبون الحضور ، وقسم وصلوا ورفعوا الستور .

ثم بين وجه كون ذكر الظاهر ناشئًا عن شهود الباطن فقال :

[أشهدك من قبل أن استشهدك فنطقت بألوهيته الظواهر ، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر]

قلت : الروح فى أصل ظهورها فى غاية الطهارة والصفاء ، فحين أبرزها الله تعالى فى عالم الذر كانت عالمة درّاكة ، فأشهدها الله تعالى عظمته وجلاله وبهاءه وكمال وحدانيته فقال لها حينئذ : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)[1] .

فكلها أقرت بالربوبية ، فلما ركبها فى هذا القالب ، فمنها من أقرت بذلك العهد ، ومنها من جهلت وأنكرت ، فقد أشهدك الحق تعالى حين كنت فى عالم الأرواح ربوبيته ووحدانيته فعلمتها وحققتها ، من قبل أن يستشهدك : أى يطلب منك تلك الشهادة فحين طلبها منك وجد روحك عالمة ، فنطقت بإلهيته التى عرفتها فى عالم الذر ألسنة الظواهر . وتحققت بأحديته التى شهدتها قبل التركيب القلوبُ والسرائر ، فكل ماظهر من الإقرار بالربوبية فى عالم الشهادة فهو فرع الإشهاد المتقدم فى عالم الغيب ، وكل ماظهر من التحقق بالأحدية للقلوب فهو فرع العلم السابق فى علم الغيوب ، فالواجب على العبد أن يكون جامعًا بين إقرار الظاهر وتوحيد الباطن ، فالأول فرق ، والثانى جمع ، وإلى هذا المعنى أشار الجنيد رضى الله عنه بقوله :

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

قَــدْ تَحَقَّقْتَ بِسِـرِّى حِـينَ نَاجـاكَ لِسَـانِى
فَــاجْتَمَعْنَــا لِمَعــانٍ وَافْتَــرَقْنــاَ لِمَعَــانِ
إِنْ يَكُنْ غَيَّبَكَ التَّعْـــــظِيمُ عَنْ لَحْظِ عَيَانِى
فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الْـوَجْـــــدُ مِنَ الْأَحْشَاء دَانِى

ثم بين كرامات الذكر المتقدم فقال :

[أكرمك كرامات ثلاثًا : جعلك ذاكرًا له ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك . وجعلك مذكورًا به إذ حقق نسبته لديك وجعلك مذكورًا عنده فتمم نعمته عليك] .

قلت : لقد أكرمك الحق تعالى أيها الإنسان كرامات كثيرة ، وأنعم عليك نعمًا غزيرة قال تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا)[1] .

وأجل الكرامات وأعظمها كرامات الذكر .

وفى الحديث : « مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَلِلَّهِ فِيهِ نِعَمٌ يُنْعِمُ اللهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ ، وَمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام . ذكره المنذرى .

ومرجع هذه الكرامات إلى ثلاثة أمور :

الكرامة الأولى : جعلك ذاكراً له ، ومن أين لعبد ذليل أن يذكر سيداً جليلا ، ولولا فضله عليك لم تكن أهلا لجريان ذكره على لسانك .

الكرامة الثانية : جعلك مذكوراً به حيث ذكرك بنفسه حين ذكرته . قال تعالى : (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ)[2] .

وإذا كنت مذكوراً بسبب ذكره لك فقد ثبتت خصوصيتك عنده ، فأى كرامة أعظم من هذه ؟ فقد حقق نسبته لديك حيث أثبت لك الخصوصية . وقال لك ،

---

(١) إبراهيم : ٣٤ .
(٢) البقرة : ١٥٢ .

يا وليى ويا صفيى ، فمن أين أنت وهذه النسبة ، لولا أن الله تفضل عليك .
قال بعضهم فى تفسير قوله تعالى :

(وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ)[1] .

أى ولذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لله .

الكرامة الثالثة : حيث جعلك مذكوراً عنده فى الملائكة المقربين . ففى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِى ، فَإِنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى ، وَإِنْ ذَكَرَنِى فِى مَلَإٍ ذَكَرْتُه فِى مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِهِ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّى ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِى يَمْشِى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » اهـ .

وفى حديث آخر : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا غَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ » .

وكان يحيى بن معاذ رضى الله عنه يقول : يا غفول يا جهول ، لو سمعت صرير القلم حين يجرى فى اللوح المحفوظ بذكرك لَمُتَّ طرباً اهـ .

مقياس العمر

فإذا عمرت أوقاتك بذكر الله فعمرك طويل ، وإن قلّت أيامه كما أبان ذلك بقوله :

[**ربّ عمر اتسعت آماده وقلّت أمداده ، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده**] .

قلت : رُبَّ هنا للتكثير فى الموضعين ، فكثير من الأعمار اتسعت آماده ، جمع

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .

أمد : وهو الزمان : أى كثير من الناس طالت أعمارهم ، واتسعت أزمنتهم ، وقلت أمدادهم : أى فوائدهم ، فلم يحصلوا على شيء حيث اشتغلوا بالبطالة والتقصير ، حتى مضت تلك الأيام ؛ كطيف المنام ، وأضغاث أحلام ، وكثير من الأعمار قلت آمادهم : أى أزمنتهم ، وكثرت أمدادهم : أى فوائدهم ، فأدركوا من فوائد العلم والأعمال والمعارف والأسرار فى زمن قليل ، مالم يدركه غيرهم فى الزمن الكثير . ومثال ذلك أهل الجذب مع السلوك وأهل السلوك وحده ، فإن أهل الجذب الموافقين للسالكين فى الأعمال يطوون فى ساعة واحدة من مسافة القرب مالم يدركه أهل السلوك فى سنين ، وذلك أهل الفكرة مع أهل الخدمة :

« فِكْرَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً » .

وفى ذلك قال الشاعر :

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِى قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَجَّهْ

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : أوقاتنا كلها ليلة القدر ، أى كل وقت عندنا أفضل من ألف شهر عند غيرنا . قال القاضى أبو بكر بن العربى المعافرى تلميذ الغزالى : لمت الشيخ أبا حامد على انقطاعه واعتزاله عن الخلق ، وقطع انتفاعهم بما وهبه الله من العلم الظاهر والباطن ، فقال متمثلا :

قَدْ تَيَمَّمْتُ بِالصَّعِيدِ زَمَانًا وَأَنَا الآنَ ظَافِر بِالمَاء
مَنْ سَرَى مُطْبِقَ الْجُفُونِ وَأَضْحىٰ فَاتِحاً لَا يَرُدُّهَا لِلْعَمَاء

أى من كان يمشى مسدود العينين ، وأضحى : أى صار فاتحاً لعينيه لا يرجع للعماء ، قلت : يا سيدى الاشتغال بالعلم نفع عام وهو من أفضل العبادات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« لَأَنْ يَهْدِىَ الله بك رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ » .

فقال : لما طلع قمر السعادة فى أفق الإرادة ، وأشرقت شمس الوصول فى أرض الأصول :

تَرَكْتُ هَوَى سُعْدَى وَلَيْلَى بِمَعْزِلٍ ... وَصِرْتُ إِلَى عَلْيَاءِ أَوَّلِ مَنْزِلِ
فَنَادَتْنِيَ الْأَكْوَانُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... أَلَا أَيُّهَا السَّاعِي رُوَيْدَكَ فَامْهِلِ
غَزَلْتُ لَهُمْ غَزْلًا رَقِيقًا فَلَمْ أَجِدْ ... لِغَزْلِيَ نَسَّاجاً فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِي

فانظر من أطلعه الله على بركة عمره ، وأراه ثمرة وقته ، كيف اختار الآكد فالآكد والأولى فالأولى ، ليدرك ما تلمحه من الفوائد ، ويحظى بالخصائص والزوائد ا هـ .

قال الشطيبى رحمه الله : قال أحمد بن أبى الحوارى لأبى سليمان الدارانى رضى الله عنهما : قد غبطت بنى إسرائيل ، قال بأى شىء ؟ قلت : بثمانمائة عام حتى يصير كالشنان البالية وكالحنايا والأوتار ، فقال : ما ظننت إلا وقد جئت بشىء ، والله ما يريد الله منا أن تيبس جلودنا على عظامنا ، وما يريد منا إلا صدق النية فيما عنده . هذا إذا صدق فى عشرة أيام نال ما ناله الآخر فى أعماره الطويلة ا هـ .

وقال فى القوت : فإن البركة فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك فى عمره الطويل بغفلته ، فيرتفع لك فى السنة ما يرتفع له فى عشرين سنة . وللخصوص من المقربين فى مقامات القرب عند التجلى بصفات الرب إلحاق برفع الدرجات ، وتدارك لما فات ، عند أذكارهم وأعمال قلوبهم اليسيرة فى هذه الأوقات ، فكل ذرة من ذكر : تسبيح أو تهليل ، أو حمد أو تدبر وتبصرة ، أو تفكر وتذكرة ، لمشاهدة قرب ، ووجد برب ، ونظرة إلى حبيب ودنوّ من قريب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين ، الذين هم لنفوسهم واجدون ، وللخلق مشاهدون .

ومثال العارفين فيما ذكرناه من فنائهم بشهادتهم ورعايتهم لأمانتهم وعهدهم فى وقت قربهم وحضورهم ، مثل العامل فى ليلة القدر ، العمل فيها لمن وافقها خير من ألف شهر . وقد قال بعض العلماء . كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر

ا هـ منه . فالبركة فى العمر هى إدراك الأمداد العظيمة فى الآماد القليلة ، كما تقدم ، وكما بينه بقوله :

[من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمان من منن الله تعالى مالا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة] .

قلت : ليست البركة فى العمر بكثرة أيامه وطول أزمانه ، وإنما البركة فى العمر أن تصحبه العناية ، وتهب عليه ريح الهداية ، فيدرك فى يسير من الزمان من منن الله تعالى ، أى من علومه ومعارفه وأسراره مالا يدخل تحت دوائر العبارة ، لأن ما أدركه أوسع من ضيق العبارة ، إذ قال تعالى :

« أَعْدَدْتُ لِعِبَادِى الصَّالِحِينَ ، مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » .

فقد يدرك العارف من دقائق الأسرار ما تعجز عنه عبارة اللسان ، كل ذلك فى أقل زمان ، وغالب هذا يحصل من ملاقاة الرجال وصحبتهم ، فإن المدد الذى يحصل للإنسان فى ساعة واحدة معهم لا يحصل فى أزمنة طويلة مع غيرهم ، ولو كثرت صلاتهم وصيامهم ، إذ ليس العبرة بكثرة الأوراد ، إنما العبرة بكثرة الأمداد :

« إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ذكره فى الجامع .

والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، والعمل مع المعرفة ليس كالعمل مع الجهل ، وذلك معلوم .

قال الشيخ الحضرمى فى بعض وصاياه : من كان يستمد من محبرة الجمع فهو يكتب ما يكون ومالا يكون « طويل طويل طويل ، قصير قصير قصير ، شىء شىء شىء ، ماشىء ماشىء ماشىء ، عدم عدم عدم ، وجود وجود وجود ا هـ » .

فالمعنى : طويل طويل ، والحس : قصير قصير ، والموجود القديم شىء ثابت

وما سواه ليس بشيء ، والسوى عدم والواحد القهار وجود ! فالذى يكتب من محبرة الجمع ، أى يستمد من حضرة الجمع يكتب الأشياء كلها ، ويستمد من الأشياء كلها لمعرفته فى الأشياء كلها ، كانت قصيرة أو طويلة ، وجودية أو عدمية ، وبالله التوفيق .

وسبب البركة فى العمر هو التفرغ من الشواغل والشواغب ؛ فمن كثرت شواغله وشواغبه لا بركة له فى عمره ، لأنه منع من تصريفه فى طاعة مولاه بمتابعة شهواته وتحصيل مناه ، ومن تفرغ من الشواغل ولم يقبل على مولاه فهو مخذول مصروف عن طريق استقامته وهداه ، كما أبان ذلك بقوله :

[الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تَتوجه إليه ، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه] .

قلت : إذا قلّت شواغلك فى الظاهر وعوائقك فى الباطن ثم لم تَتوجه إليه فى ظاهرك ، ولم ترحل إليه فى باطنك ، فهو علامة غاية الخذلان الكبير ، لأن جلّ الناس ما حبسهم عن التوجه إلى الله إلا كثرة أشغالهم الحسية ، فاشتغلت جوارحهم بخدمة الدنيا فى الليالى والأيام ، والشهور والأعوام ، حتى انقرض العمر كله فى البطالة والتقصير ، فهذا هو الخذلان الكبير . ومن الناس من قلت شواغلهم الظاهرة لوجود من قام لهم بها ، لكن كثرت علائقهم فى الباطن لكثرة ما تعلق لهم من الشواغل ، فهم مغرقون فى التدبير والاختيار ، والاهتمام بأمور من تعلق بهم من الأنام لاسيما من كان له جاه ورياسة وخطة أو سياسة ، فهذا باعتبار العادة بعيد من الإقبال على مولاه إلا إن سبقت له سابقة عناية فتجره إلى رحمة ربه ورضاه .

والحاصل : أن الخير كله فى التخفيف من الشواغل والعلائق ، فمن تفرغ منها فهو قريب من الحضرة . وأما من كثرت شواغله وعوائقه فأمره بعيد ، لأن فكرته مشغولة بالعلائق والمخاطف ، فمهما هم بالسير جذبته المخاطف إليها ، وبقى مرهوناً معها ، وهو الذى أشار إليه بقوله :

[الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار] .

فمن لا تفرغ له لا فكرة له ، ومن لا فكرة له لا سير له ، ومن لا سير له لا وصول له ، فالفكرة هى سير القلب إلى حضرة الرب ، وذلك السير فى ميادين

الأغيار ، أى فى مجال شهود الأغيار ، ليستدل بها على وجود الأنوار ، فهذه فكرة أهل الحجاب ، وفكرة أهل الشهود سير الروح فى ميادين الأنوار ، أو سير السر فى ميادين الأسرار ، فتكلم الشيخ على بداية الفكرة ولم يتكلم على نهايتها ، ولو تكلم عليهما معاً لكان أحسن ، كما فعل فيما يأتى حيث قال : الفكرة فكرتان إلخ .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : الفكرة انبعاث القوة الإدراكية فى عالم الغيب والشهادة ليدرك حقيقة الأشياء على ما هى عليه ، ومن وجد ذلك فهو عارف اهـ .

وقيل إنما عبر الشيخ بالأغيار وهى المخلوقات ، لقوله عليه الصلاة والسلام وقد رأى قوماً يتفكرون فقال لهم :

« تَفَكَّرُوا فِى الْخَلْقِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِى الْخَالِقِ ، فَإِنَّكم لَا تَقْدُرُونَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » اهـ .

قلت : إنما نهى عليه الصلاة والسلام عن التفكر فى كنه الذات وإدراك الحقيقة . وأما التفكر فى عظمة الذات وقدمها وبقائها ووحدانيتها وتجلياتها فى ظهورها وبطونها فهذا لا ينهى ، لأنه سبب المعرفة مع العجز عن إدراك الكنه .

أهل الحجاب وأهل العرفان

والتحقيق أن أهل الحجاب لا يحل لهم التفكر إلا فى المصنوعات . وأما أهل العرفان فلا يتفكرون إلا فى عظمة الذات ، أى فى عظمة الصانع وتوحيده وقدمه وبقائه وظهوره واحتجابه ، وفى الغيبة عن الحس وشهود المعنى ، أو فى الغيبة عن الكون بشهود المكون أو فى الغيبة عن الظلمة بشهود النور ، وهو سراج القلب الذى أشار إليه بقوله :

[**الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له**] .

قلت : الفكرة فى عظمة البارى وتوحيده نور ، فإذا كان القلب مشغولا

بالفكرة فى عظمة الحق فهو منوّر بنور الحق ، وإذا خلا من الفكرة فى الحق دخلته الفكرة فى الأغيار وهى ظلمة ، ولا تجتمع الظلمة والنور أبداً ، فالفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت الفكرة فى الحق انطفأ نوره بدخول ظلمة الكون فلا إضاءة له ، ولذلك قال الجنيد رضى الله عنه : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الله فى ميدان الفكرة على بساط التوحيد ا هـ .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : أربعة من حازهن فهو من الصديقين المقربين ، ومن حاز منهن ثلاثة فهو من أولياء الله المقربين ، ومن حاز منهن اثنين فهو من الشهداء المؤمنين ، ومن حاز منهن واحدة فهو من عباد الله الصالحين .

أولها : الذكر ، وبساطه العمل الصالح ، وثمرته النور .

الثانى : الفكر ، وبساطه الصبر ، وثمرته العلم .

الثالث : الفقر ، وبساطه الشكر ، وثمرته المزيد منه .

الرابع : الحب ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها ، وثمرته الوصول إلى المحبوب .

ثم بين فكرة البداية والنهاية فقال :

[**الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان**] .

قلت : فكرة أهل التصديق والإيمان هى سير القلب فى ميادين الأغيار ، فهم يتفكرون فى المصنوعات ، ليتوصلوا إلى معرفة الصانع وقدرته وعلمه وحياته وغير ذلك من سائر صفاته ، وهم الذين قال الله فيهم :

(يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ)[1] .

وفكرة أهل الشهود والعيان هى سير الروح فى ميادين الأنوار ؛ قد انقلبت الأغيار فى حقهم أنواراً ، والدلائل مدلالوت ، والغيب شهادة ، وهم الذين أطلعهم الله على سر قوله تعالى :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فى السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ)[2] .

---

(١) البقرة : ٣ .

(٢) يونس : ١٠١ .

ثم بين حال الفريقين فقال :

[فالأُولى لأرباب الاعتبار] .

قلت : الفكرة الأولى وهى فكرة تصديق وإيمان لأصحاب الاعتبار ، وهم أهل الاستدلال يستدلون بالصنعة على الصانع ، وهم السائرون إلى الله بأنوار التوجه .

[والثانية لأرباب الشهود والاستبصار] .

قلت : الفكرة الثانية وهى فكرة شهود وعيان ، هى لأرباب الشهود والاستبصار لأنهم ترقوا من شهود الدليل إلى المدلول ، ومن الأثر إلى المؤثر ، ومن الأغيار إلى شهود الأنوار ، ومن الفرق إلى الجمع ؛ ومن الملك إلى الملكوت ، فما يشهدون إلا أنوار الملكوت تدفقت وانصبت من بحار الجبروت ، فهم غرقى فى بحار الأنوار ، مطموس عنهم وجود الآثار ، فإن ردوا إليه رأوه قائماً بالله ومن الله وإلى الله ، فما أعظم قدرهم عند الله ، وفى مثلهم قال القائل :

هُم الرِّجَالُ وَغَبْنٌ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ ... لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِي وَصْفِهِمْ رَجُلُ

حققنا الله بما حققهم به آمين .

هذا آخر الباب الخامس والعشرين ، وبها ختمت الأبواب ، وما بقى إلا المراسلات والمناجاة .

وحاصل المراسلات ثلاثة : كتب وجواب ، فأول الكتب رسالة فى السلوك إلى حضرة ملك الملوك ، بدايتها ونهايتها ونصها .

رسالة فى السلوك

وقال رضى الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه :

[أما بعد ، فإن البدايات مَجْلاة النهايات] .

قلت : البدايات ما يظهر على المريد فى أول دخوله من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق ، وهو مظهر ومجلاة للنهايات : أى يتجلى فيها ما يكون فى

النهايات ، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، فمن رأيناه جادًّا فى طلب الحق ، باذلا نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه . وإذا رأيناه مقصراً فى ذلك علمنا قصوره عما هنالك ، وأنشدوا :

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِى . وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَى سَهِرَ اللَّيَالِى
تُرِيدُ الْعِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا يَغُوصُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّآلِى

وبالجملة من رأيته صادق العزم فى البداية ، فاعلم أنه من أهل العناية ، ومن كان فى سلوكه معتمداً على الله ، ومفوضاً أمره إلى الله كانت غاية سلوكه الوصول إلى الله ، كما نبه عليه بقوله :

[ومن كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته] .

قلت : البداية بالله هى ألا يرى لنفسه حولا ولا قوة ، لا فى عمل ، ولا فى حال ولا فى مجاهدة ، ولا مكابدة ، بل ما يبرز منها من الأعمال أو من الأحوال راه منة من الله وهدية إليه ، فإن كان هكذا فقد صحت بالله بدايته وإليه تكون نهايته .

ومما يتأكد النظر إليه فى البداية تصحيح ما يفتقر إليه فى سلوكه من علم الشريعة وعلم الطريقة ، فالعمل بلا علم جناية ، والعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية ، وفى ذلك قيل :

إِذَا كُنْتَ ذَا عَمَلٍ وَلَمْ تَكُ عَالِمًا فَأَنْتَ كَذِى رِجْلٍ وَلَيْس لَهُ نَعْلُ
وَإِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَلَمْ تَكُ عَامِلًا فَأَنْتَ كَذِى نَعْلٍ وَلَيْسَ لَهُ رِجْلُ
جَوَادُكَ مَسْبُوقٌ إِلَى كلِّ غَايَةٍ وَهَلْ ذو جَوَادٍ رِىءَ يَسْبِقُهُ الْبَغْلُ

وقد ذيلتها ببيت تكميلا للأقسام فقلت :

وَإِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَحَالٍ وَهِمَّةٍ جَوَادُكَ سبّاقٌ يَصِحُّ لَهُ الْوَصْلُ

فإذا حصّل المريد ما يحتاج إليه فى بدايته من إتقان طهارته وصلاته وصومه ، فليشتغل بطاعة ربه ، ويعرض عما يشتغله عنه ، كما أبان ذلك بقوله :

[والمشتغل به هو الذى أحببته وسارعت إليه ، والمشتغل عنه هو المؤثر عليه] .

قلت : ال موصولة فى الموضعين أى الذى تشتغل به فى جميع أوقاتك وتصرف إليه كليتك هو الحبيب الذى تسارع إليه ، وأفضل أشغالك ذكره ، وليكن ذكراً واحدًا وقصدًا واحداً تبلغ مرادك إن شاء الله . والذى تشتغل عنه ، أى تغيب عنه هو المؤثر عليه بفتح الثاء ، أى هو الذى تركته وآثرت حب الله عليه .

والحاصل : أن الذى تشتغل به وتقصده هو الذى أحببته وسارعت إليه ، والذى تغيب عنه هو الذى تركته وآثرت حب الله عليه ، فلا جرم أن الله يبلغك ما تريد : « إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ الْعَبْدَ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ » وأنشدوا :

إِذَا الْعَبْدُ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... وَأَعْرَضَ عَنْ كلِّ الشَّوَاغِلِ جَانِبَا
فَقَدْ زَالَ عَنْهُ الْعَارُ بِالْعَزْمِ جالِبًا ... عَلَيْهِ قَضَاءَ اللهِ مَا كَانَ جَالِبَا

وقيل إن علامة الصادق ألا يرضى بدون الغاية أبداً ، مع أن الغاية لا تدرك أبداً ، وقال الفضيل : من رأيتموه وكلامه حكمة ، وصمته فكرة ، ونظره عبرة ، فلا تهتموا منه ، فإنه قد قطع عمره فى عبادة ، وسلوكه أبداً فى زيادة . ومن رأيتموه يطيل الأمل ويسىء العمل ، فاعلموا أن داءه عضال ا هـ .

وأعظم ما يشتغل عنه المريد ويغيب عنه حب الدنيا فإنه سم قاطع ، ولا يمكن السير إلى الله إلا بصفاء القلوب مع بقاء شىء منها ، وقليلها ككثيرها .

روى أن بعض المريدين قام ليلا لعبادته فلم يجد قلبه ، فقال : إذا أصبحت شكوت هذه الوسوسة للشيخ ، فوقف الشيطان على الشيخ وقال : إن فلاناً يريد أن يشكونى وأنا ما ظلمته ، إن الدنيا بستانى وأنا أحرسها ، فمن أخذ منى شيئًا لا أتركه حتى يترك ما أخذ ، فلما أصبح جاء الشيخ فقال له الشيخ : جاء إبليس يشتكى منك ، ما الذى أخذت له ؟ فقال يا سيدى خلق ثوبى فطلبت إبرة لأرقعه ، فقال له أخرجها له ، وقل لنفسك الموت أقرب من ذلك ، فطرحها فوجد قلبه ، وأنشدوا :

لَا تَحْقِرَنَّ ضَعِيفاً عِنْدَ رُؤْيَتِهِ إِنَّ البَعُوضَةَ تُدْمِى مُقْلَةَ الْأَسَدِ
وَلِلشَّرَارَةِ حَقْرٌ حِينَ تَنْظُرُهَا وَرُبَّمَا أَضْرَمَتْ نَارًا عَلَى بَلَدِ

ثم هذا الذى تشتغل به وتسارع إليه هو أيضاً يطلبك ويسارع إليك ، وإن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً ، كما أبان ذلك بقوله :

[ومن أيقن أن الله يطلبه صدق الطلب إليه] .

قلت : اليقين هو سكون القلب وطمأنينته بحيث لم يبق فيه اضطراب ولا ريب فى جميع الأمور .

وطلب الله لعبده من وجوه :

منها : أنه يطلبه بالقيام بحقوق العبودية ووظائف الربوبية .

ومنها : أنه يطلبه بالتوجه إليه والفرار مما سواه ، ويطلبه بالعكوف فى حضرته على بساط الأدب والمحبة ، فمن أيقن أن الله يطلبه بهذه الوجوه صدق الطلب إليه ، وصدق الطلب هو إفراد القلب والقالب لجهة المطلوب بحيث لم يبق له التفات لغيره ، فلم يثق إلا به ولا يعتمد إلا عليه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[ومن علم أن الأمر كله بيده انجمع بالتوكل عليه] .

قلت : قال تعالى : (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)[1] وقال : (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ)[2] .

فمن علم أن الأمور كلها بيد الله أمر الدنيا وأمر الآخرة ، والنفوس والقلوب ، لم يبق له نظر إلى سواه ، وانجمع بكليته عليه . قال تعالى :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)[3] .

أى كافيه ، ومن كان الله كافيه ماذا يفوته ؟

حكى عن بعض المشايخ أنه دخل برية الحجاز مع أصحابه بغير زاد ، فلما طالت عليهم المدة وأجهدهم الجوع ، انحرف الشيخ عن الطريق وهز شجرة فأسقطت رطبًا جنيًّا فأكلوا منها إلا شابًّا ، فقال له الشيخ لِمَ لم تأكل ؟ قال :

---

(١) هود : ١٢٣ .
(٢) آل عمران : ١٥٤ .
(٣) الطلاق : ٣ .

إنى نويت التوكل على الله ورفضت الأسباب جملة ، فكيف أجعلك عندى بمنزلة السبب حتى تكون النفس متشوقة لما علمت منك ؛ ثم لم يصحبهم تصحيحاً ليقينه وإتماماً لعقده .

ومما يعين على تحقيق اليقين وصدق التوكل ، رفض الدنيا وأهلها ، وإليه أشار بقوله :

[**وإنه لابد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه ، وأن تسلب كرائمه**] .

قلت : قد حكم الله على هذا الوجود الظاهر أن يصير باطناً فلابد أن تنهدم دعائمه وهى ما يستقل به وجوده فى العادة وهى هنا استعارة عن هدم وجوده وتبديله فى خلق آخر . قال تعالى :

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوٰتُ)[1] وقال تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ)[2] .

على تأويل أهل الظاهر ، ولابد أيضًا أن تسلب كرائمه ، والمراد زوال بهجته وجماله ، وهى زينة الدنيا التى ذكرها الله بقوله :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)[3] .

فمن تيقن بفناء هذا الوجود وزوال هذا العرض الفانى ، جعل الدنيا محلا للعبور يعبر منها إلى دار البقاء ، فيصبر على شدتها ولأوائها حتى تنقضى عنه أيام الدنيا ، فهذا هو العاقل الذى ذكره بقوله :

[**فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى**] .

قلت : لأن من علامات العقل : « التَّجَافِى عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالتَّزَوُّدُ لِسُكْنَى الْقُبُورِ ، وَالتَّأَهُّبُ لِيَوْمِ النُّشُورِ » كما قال عليه الصلاة والسلام .

فالعاقل هو الذى يميز بين الحق والباطل ، والنافع والضار ، والحسن

---

(١) إبراهيم : ٤٨ .
(٢) القصص : ٨٨ .
(٣) آل عمران : ١٤ .

والقبيح ، وكل ما يفنى وإن طال فهو قبيح وكل ما يبقى وإن غاب فهو مليح
قال بعضهم : يا عجباً للمطمئن للدنيا والراكن إليها ، والحريص عليها ، وهو يرى سرعة زوالها ، وكثرة تقلبها بأهلها ، ومفاجأة نوائبها ، وأنشدوا :

أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاء الْمُلُوكِ وَمَنْ كانُوا إِذَا النَّاسُ قَامُوا هَيْبَةً جَلَسُوا
كَأَنَّهُمْ قَطُّ مَا كانُوا وَلَا خُلِقُوا وَمَاتَ ذِكْرُهُمُ بَيْنَ الْوَرَى وَنُسُوا
حَطُّوا الْمَلَابِسَ لَمَّا أُلْبِسُوا حُلَلًا مِنَ التُّرابِ عَلَى أَجْسَادِهِمْ وَكُسُوا

قال مالك بن دينار : مررت بمقبرة فوجدت بهلول المجنون قاعداً بين القبور وهو عريان إلا ما يستر العورة ؛ فأتيت نحوه لأستفيد من طرائفه ، فوجدته تارة ينظر إلى السماء فيستهلّ ، وتارة ينظر إلى الأرض فيعتبر ، وتارة ينظر عن يمينه فيضحك ، وتارة ينظر عن شماله فيبكى ، فسلمت عليه فرد علىّ السلام ، فسألته عما رأيت من حاله ؟ فقال : يا مالك أرفع رأسى إلى السماء فأذكر قوله تعالى : (وَفِى السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)[1] فأستهل .

وأنظر إلى الأرض فأذكر قوله تعالى :

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)[2] فأعتبر .

وأنظر عن يمينى فأذكر قوله تعالى :

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ما أَصْحَابُ الْيَمِينِ)[3] فأضحك .

وأنظر عن شمالى فأذكر قوله تعالى :

(وَأَصْحَابُ الشِّمالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمالِ)[4] فأبكى .

فقلت : يا بهلول إنك لحكيم ، أتأذن لى أن أشترى لك قميص قطنٍ ؟ قال : افعل ؛ فسارعت للسوق وأتيته بقميص قطن ، فنظر إليه وقلبه يميناً وشمالا ورمى به إلىّ وقال : ليس مثل هذا أريد ؟ قلت : وكيف تريده ؟ قال : أريد

---

(١) الذاريات : ٢٢ .
(٢) طه : ٥٥ .
(٣) الواقعة : ٢٧ .
(٤) الواقعة ٤١ .

قميصاً من الإخلاص محفوظاً من الدنس والانتقاص ، غرس قطنه بالحقائق ، وحرس من جميع البوائق ، سقاه جبريل بماء السلسبيل فأينع حسناً وأثمر قطناً ، فلقطته أيدى الكرام البررة ، التالين سورة الحمد والبقرة ، ثم حلجته أكف الوفاء بعز وصفاء من غير جفاء ؛ ثم نخلته الأوتار المتصلة بالأنوار ، وغزلته مغازل الحمد والثناء بالمحبة والاعتناء ، جعلت الجنة لناسجه ثوابا ، وكان هو للابسه من النار حجاباً ، فهل تقدر يا مالك على مثل هذا ؟ فقلت : إنما يقدر عليه من خصك بوصفه ، وألهمك لمعاينته وكشفه ، ثم قلت : يا بهلول صف لى لابس هذا القميص ، فقال : نعم ، إنما يلبسه من خصه الله بأنواره ، وكتبه فى ديوان أبراره ، وأحياه بالسابقة ، وقواه بالعزيمة الصادقة ، فجسمه بين الخلق يسعى ، وقلبه فى الملكوت يرعى ، فلا يتكلم بغير ذكر الله لفظة ، ولا ينظر لغير الله لحظة ، ثم صاح صيحة عظيمة وقام وهو يقول : إليك فر الهاربون ، ونحوك قصد الطالبون ، وببابك أناخ التائبون ا هـ .

اللهم إنا قد وقفنا ببابك فلا تطردنا، ونحن انتسبنا لجنابك فلا تحرمنا يا أرحم الراحمين .

ثم من فرح بالباقى وأعرض عن الفانى تشرق عليه الأنوار وتلوح له الأسرار ، كما أبان ذلك بقوله :

[**قد أشرق نوره ، وظهرت تباشيره**] .

قلت : قد أشرق نوره بحلاوة الزهد فى الدنيا والإقبال على المولى ، لأن حب الدنيا ظلمة ، فإذا خرج من القلب دخله النور ، وهو حلاوة الزهد ، وراحة القناعة ، وبرد الرضا ، ونسيم التسليم ، وظهرت تباشيره : أى مبشرات تبشره بالإقبال ، وروح الوصال ، وجنة المعارف والجمال ، وانشدوا :

إِذَا هَبَّتْ عَلَيْنَا مِنْ حِمَاكُمْ ... نُسَيْمَاتٌ تُذَكِّرُنَا الْوِصَالاَ
مُبَشِّرَةٌ بِإِقْبَالٍ وسَعْدٍ ... وَعِزٍّ دائم دَهْرًا طَوِيلاَ
مُبَلِّغَةٌ شَذَا تِلْكَ الْمَعَانِى ... مُذَكِّرَةٌ رُبَاهَا وَالطُّلُولاَ
فَذٰلِكَ خَيْرُ وَقْتٍ بِالْمُنَى ... وَأَحْسَنُ مَا تَعَاطَى السَّلْسَبِيلاَ

فحين أشرق نوره ، وظهرت تباشيره ، أعرض عن الدنيا بالكلية ، كما أبان ذلك بقوله :

[فصدف عن هذه الدار مغضبًا ، وأعرض عنها موليًا] .

قلت : الصدوف هو الإعراض والتولى ، أى فأعرض هذا السائر إلى الله عن الدنيا بحذافيرها مغضبًا بصره ، أى مغمضاً عينى بصيرته عن النظر إلى زهرة هذه الدار وبهجتها ممتثلا فى ذلك قول المولى لرسوله المصطفى :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ) أى أصنافاً من الكفار : (زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)[1] .

وأعرض عن هذا قلباً وقالباً ظهره عنها ، مقبلا بوجهه إلى المولى .

قال الشطيبى : واعلم أن الإعراض عن الدنيا إنما هو بالقلب ، ومتى كان القلب معلقاً بها لم ينفع زوالها من اليد ولا قطع أسبابها ، بل المطلوب زوالها من القلب سواء كانت فى اليد أو لم تكن . قال تعالى لمن أعطاه ملك الأرض بحذافيرها سليمان عليه السلام :

(هٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَو أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[2] وقال فيه أيضاً : (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب)[3] .

وقال تعالى لمن نزعها منه بحذافيرها سيدنا أيوب عليه السلام :

(وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ)[4] ثم قال : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[5] .

لكن من علامة حب الآخرة ترك الدنيا . وعلامة تركها ألا يفرح بالموجود منها ، ولا يتأسف على ما فاته منها ، ولا يمكن ذلك إلا بترك الانتصار للنفس ومخالفتها ، وأنشدوا :

---

(١) طه : ١٣١ .
(٢) ص : ٣٩ .
(٣) ص : ٣٠ .
(٤) ص : ٤٣ .
(٥) ص : ٤٤ .

يَا نَفْسُ فِي التَّقْرِيبِ كُلُّ مَذَلَّةٍ فَتَجَرَّعِي ذُلَّ الْهَوَى بِهَوَانِ
وَإِذَا حَلَلْتِ بِدَارِ قَوْمٍ دَارِهِمْ فَلَهُمْ عَلَيْكِ تَعَزُّزُ الْأَوْطَانِ

وسئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه عن الدنيا فقال : أخرجها من قلبك واجعلها فى يدك ، فإنها لا تضرك .

وقال الحضرمى رضى الله عنه : ليس الرجل الذى يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها ، إنما الرجل الذى يعرف كيفية إمساكها فيمسكها . قال الشيخ زروق رضى الله عنه : لأنها كالحية ، وليس الشأن فى قتل الحية إنما الشأن فى إمساكها حية ا هـ .

وقد يقصد بترك الدنيا ما هو أعظم من الدنيا كحب الجاه والرياسة وغير ذلك من الحظوظ ، ولذلك قيل : من أراد أن يكون منه شىء فلا يأتى منه شىء ، لأنه عبد لإرادته وعامل لحظ نفسه ، فإذا انقطعت عنه الحظوظ النفسية والشهوات الدنيوية ، صح قصده إلى الله ؛ وانفرد قلبه بالتوجه لمولاه .

قلت : ولأبى الأنوار التطوانى قصيدة فى هذا المعنى قال فى بعضها :

وَمَنْ كَانَ قَصْدُهُ فِى نَيْلِ مَا يُرِيدُ فَمَا قَامَ بِالْحُجَّةِ
وَاصِلْ طَرِيقَنَا وَارْفُضِ الْعِلَلْ مَعَ الصَّبْرِ وَارْفَعْ لِلْهِمَّةِ
وَحَسْبُ الْمُحِبِّ مُشَاهَدَةٌ يَقِيناً لما يَبْدُو مِنْ حَضْرَةِ
وَفَهْمُكَ عَنْهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يُعَوِّضَكَ الْمَنْعَ بِالْمِنْحَةِ

وأبو الأنوار هذا تلميذ أبى المحاسن سيدى يوسف الفاسى ، وقبره بتطوان بالمصلى القديمة لناحية القصبة ، نفعنا الله بذكره .

ثم إن من أعرض عن الدنيا لا وطن له فيها ، وإنما وطنه عند مولاه ، كما بين ذلك بقوله :

[**فلم يتخذها وطناً ، ولا جعلها سكناً**] .

قلت : لأن من توطن الشىء فقد قام فيه ، والسائر لا مقام له إلا عند مولاه .

وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول فى شأن الدنيا : اعبروها ، ولا تعمروها .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَالِي وَللدُّنْيَا ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِب سَافَرَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ عَنْهَا وَتَرَكَهَا » .

فليست الدنيا دار إقامة ولا سكناً ، وإنما هى قنطرة من هنا إلى هنا .

فالعارف لا يكون مع غير الله قراره ، لأن همته كلها عند الله ، كما قال :

[**بل أنهض الهمة فيها إلى الله ، وصار فيها مستعيناً به فى القدوم عليه**].

قلت : النهوض هو القيام ، كأن السائر إلى الله أنهض همته وأقامها من هذا العالم ، يريد بها دخول عالم الملكوت . وإنهاض الهمة يكون بامتثال أمره ، والاستسلام لقهره ، والاستعانة به على سفره ، وهو معنى قوله : وسار فيها مستعيناً به فى القدوم عليه ، والقدوم على الله هو الوصول إلى معرفته وتحقيق العلم به ، ولا يصح ذلك إلا بالتبرى من الحول والقوة . ومن ظن أن اجتهاده يوصله لمرغوبه فقد جهل ، ومن صح اعتماده على الله وصل .

ثم بين السر فقال :

[**فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها**] .

قلت : المطية فى اللغة : هى المركوب ، واستعيرت هنا للعزم القوى : أى فما زال عزمه قويًّا ، وروحه شائقة ، لا يقر قرارها ، أى لا يسكن قرارها فِي موطن دون سيدها لأن الشوق أقلقها ، وخوف فوات اللحوق أزعجها ، فهى فى السير على الدوام ، كما قال :

[**دائماً تسيارها**] .

قلت : إنما دام سيرها لقلة عوائقها ، لأنها لما أعرضت عن الدنيا مولية عنها قلت عوائقها ، لأن الدنيا شبكة العوائق ، وأصل العلائق ، وكل من قطع عروقها من قلبه ذهبت عنه العلائق ، كالشيطان الذى هو أبوها ، فلما طلق له بنته تركه ، وكالنفس ، لأن قوامها الدنيا ، فلما ذهبت ماتت ، وكالناس ، لأن الدنيا جيفة والناس كلابها ، فلما تركت لهم جيفتهم سلمت منهم ، فدام سيرها إلى أن وصلت إلى أصل وطنها وهى الحضرة كما بينه بقوله :

[**إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس**] .

قلت : الإناخة : هى النزول وحط الحمول . ولما وصلت الروح إلى مشاهدة الأحباب ، وفتح لها الباب ، أزالت ما كان عليها من الأثقال ، وجلست على بساط النزاهة والكمال ، وهى حضرة القدس : أى التنزيه التى هى دائرة الولاية ، المقتضية للعبد تحققه بتقديس مولاه عن كل وصف لا يليق بذاته ، حتى عرف أنه أجل من أن يعرف ، وأعظم من أن يوصف ، فيقول :

« لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ » .

فيغرق فى التعظيم ، ويتمكن فى التقديس ، فينعكس تقديسه عليه بحيث يحفظه مولاه ، فلا يعصيه بل يكون مقدساً بتقديس الحق إياه ، إذ قدس مولاه فقدسه مولاه كل على ما يليق بوصفه ومن هذا التقديس ينسى كل شىء بمولاه ، فيأنس به دون ما سواه ، فى عين إجلاله والهيبة منه تعظيماً لا فرقاً أو تذللا فى عين الإذلال ، فافهم قالة الشيخ زروق رضى الله عنه . وبساط الأنس : هو محل الفرح بقرب الحبيب ، ومناجاة القريب ، ليغيب عن كل شىء ، ويتانس به فى كل شىء .

ثم بين أسرار الحضرة وهى ست فقال :

[فى محل المفاتحة ، والمواجهة ، والمجالسة والمحادثة ، والمشاهدة ، والمطالعة] .

قلت : أما المفاتحة : فهى مفاتحة علم الغيوب ، فأنت تفاتحه بطلب العطاء ، وهو يفاتحك بكشف الغطاء ، أنت تفاتحه بطلب الزيادة ، وهو يفاتحك بتوالى الإفادة ، أنت تفاتحه بالترقى فى المقامات ، وهو يفاتحك بأسرار العلوم والمكاشفات .

وأما المواجهة : فهى مواجهة أنوار الملكوت ، وأسرار الجبروت ، فأنت تواجهه بأنوار التوجه ؛ وهو يواجهك بأنوار المواجهة ، وهى كشف الحجاب ، وفتح الباب . أنت تواجهه بالطاعة ، وهو يواجهك بالمحبة ، وأنت تواجهه بالإقبال ، وهو يواجهك بالوصال ، أنت تواجهه باستكشاف أنوار الملكوت ، وهو يواجهك بكشف أسرار الجبروت .

وأما المجالسة : فهى مجالسة الأدب والهيبة ، فأنت تجالسه بالأدب والحياء ،

وهو يجالسك بالتقريب والاجتباء ، أنت تجالسه بمراقبته ، وهو يجالسك بحفظه ورعايته ، أنت تجالسه بذكره ، وهو يجالسك ببره :

« أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي » كما فى الحديث .

وأما المحادثة : فهى المكالمة القلبية ، وهى الفكرة والجولان فى عظمة الجبروت ، فأنت تحادثه فى سرك بمناجاته وسؤاله ، وهو يحادثك بمزيد إحسانه ونواله ، أنت تحادثه بدوام حضوره فى سرك ولبك ، وهو يحادثك بإلقاء العلوم والأسرار والحكم فى قلبك ، أنت تحادثه فى عالم الشهادة ، وهو يحادثك فى عالم الغيب . وفى التحقيق ما ثم إلا عالم الغيب . ظهر فى عالم الشهادة ، وفى هذا المعنى قال الجنيد : لى أربعون سنة وأنا أحدث الحق والناس يرون أنى أحدث الخلق . وقالت رابعة العدوية رضى الله عنها :

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ فى الْفُؤَادِ مُحَدِّثِى وَأَبَحْتُ جِسْمِى مَنْ أَرَادَ جُلُوسِى
فالْجِسْمُ مِنِّى لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ وَحَبِيبُ قَلْبِى فى الْفُؤَادِ أَنِيسِى

وأما المشاهدة : فهى كشف حجاب الحس عن نور القدس .

أو تقول : كشف رداء الصون عن الكون ، فأنت تشاهد ذاته فى عالم ملكوته ، وهو يشاهدك فى عالم ملكه . أنت تشاهد ربوبيته ، وهو يشاهد عبوديتك .

والحاصل : أن المشاهدة من العبد هى شهود العظمة بالعظمة ، كما قال شيخنا رضى الله عنه : ومشاهدة الرب للعبد هى إحاطة علمه بأحواله وأسراره .

وأما المطالعة فهى مطالعة أسرار الملك والملكوت والجبروت وأسرار القدر ، فأنت تطالعه بالتوجه إليه ، وهو يطالعك بالترقى إليه ، أنت تطالع مواقع قضائه وقدره فتتلقاها بالقبول والرضا ، وهو يطالع أحوالك وسرائرك ، فيكشف عنك الحجب ويوسعك عليك الفضاء . أنت تطالعه بالتقرب والإقبال ، وهو يطالعك بالمحبة والوصال فيتلقاك بالإقبال والوصال ، وهذه الأسرار لا يذوقها إلا أهل الأذواق فكل واحد يذوق منها على قدر شربه ووجده ، والله تعالى أعلم .

فإن سكنت الروح فى هذه المراتب صارت الحضرة مأواها ومثواها ، كما بين ذلك بقوله :

[**فصارت الحضرة معشش قلوبهم ؛ إليها يأوون ، وفيها يسكنون**] .

قلت : عش الطير : وكره الذى يأوى إليه ، فكأن أرواح العارفين طيور الحضرة تطير فى الملكوت ، وتسرح فى الجبروت ، ثم تأوى إلى عش العبودية فى الظاهر وعش الشهود فى الباطن ، فالحضرة التى هى معشش قلوب العارفين ، هى حضرة الذات إليها يأوون : أى يرجعون بعد الطيران إلى فضاء الملكوت وأسرار الجبروت ، وفيها يسكنون لا يخرجون منها أبداً ، كما قال تعالى :

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)[1] .

ومحلها فى أعلى عليين ، وهو عرش قلوب العارفين .

[**فإن نزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ ، فبالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين**].

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : التوحيد عرش ، والشريعة المطهرة كرسى ذلك العرش ، والحقوق المفضلة فيها سماؤها ، والحظوظ النفسانية أرضها ، فكل حقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بصاحبها ، وكل شريعة لا تعضدها حقيقة لا كمال لها ا هـ .

قلت : النزول هنا مجاز ، كأن الحرية عرش والعبودية سماء ، أو أرض .

أو تقول : الحقيقة عرش ، والشريعة أرض ، فما دامت الروح فى بحر الوحدة كأنها فى عرش الرحمن ، فإن نزلت إلى العبودية كأنها نزلت إلى السماء أو الأرض .

وظاهر كلام الشيخ ومن تبعه من الشراح أن النزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ خروج عن الحضرة وليس كذلك ، إذ من كان عمله بالله وتصرفاته كلها بالله لا خروج له عن الحضرة ، وإنما النزول فى حقه بالقالب فقط دون القلب ، فالقلب لا يخرج من عشه أبداً بعد أن تمكن منه ، فكل من بلغ أن يكون علمه بالله ومن الله وإلى الله ، لا يكون تنزله للشريعة خروجاً عن

---

(١) الحجر : ٤٨ .

الحضرة لاسيما الصلاة التى هى معدن المصافاة ، فيها تتسع ميادين الأسرار ، وتشرق فيها شوارق الأنوار ، اللهم إلا أن يحمل النزول فى كلامه على أنه بالقالب دون القلب كما تقدم ، ويدل على هذا قوله فيما يأتى : بل دخلوا فى ذلك بالله إلخ .

قال الشعرانى فى بعض أجوبته : سألت شيخنا سيدى عليًّا الخواص : أى الحالتين أفضل للعبد فى حال الصلاة ؟ هل يكون يعبد الله كأنه يراه ، أو كأن الله يراه ؟ قال : فأجابنى بأن يكون العبد يعبد الله كأن الله يراه أفضل من كونه كأنه يراه ، ثم أطال الكلام فى توجيه ذلك .

قلت : وقد كنت اعترضت هذا الكلام وكتبت عليه ، ما مضمنه : إن العارفين اتفقوا أن العمل بالله أفضل من العمل لله ، لأن العمل بالله مشاهدة ، والعلم لله مراقبة ؟ ومقام المشاهدة أعلى من مقام المراقبة ، فالصلاة مع المشاهدة أفضل من الصلاة مع المراقبة وما ألزمه الخواص غير لازم ، ثم عرضته على شيخ شيخنا مولاى العربى ففرح به غاية الفرح واعجبه ؛ يعنى اعتراضى على كلام الخواص ، ولا يستغرب هذا من الخواص . والشعرانى قال فى التسهيل : وإذا كانت العلوم منحا إلٰهية ومواهب اختصاصية ، فغير مستبعد أن يدخر لكثير من المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين ، ونزولهم إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ ، إنما يكون بالإذن والتمكين .

أما الإذن فى نزولهم إلى الحقوق فبإذن شرعى ، إذ حقوق الشريعة كلها موقتة ، والتمكين منها بحيث لا يعارضه عارض يمنع منها شرعا أو طبعا .

وأما الإذن فى نزولهم إلى أرض الحظوظ فبالإلهام والإعلام ، بحيث يتأنى فى الأمر حتى يفهم أنه مراد الحق تعالى . وقد كان شيخ المشايخ الجيلانى رضى الله عنه فى حال سياحته لا يأكل حتى يقال له : بحقى عليك إلا ما أكلت .

قلت : وكل من كان عنده الفهم عن الله لا يتصرف إلا بالإذن من الله ، وبعض من طبع الله على قلبه من جلامدة الفقهاء ينكر هذا ، وهو معذور فى بلاد الضعف ، إذ من جهل شيئا عاداه .

والمراد بالتمكين هو صحة الفهم عن الله حتى لا يبقى له تزلزل أنه مراد

الحق ، بحيث لم ير له معارض شرعى ولا عادى ، وكذلك الرسوخ فى اليقين هو الثبوت فى المعرفة فى حال إرادة الفعل . وقد ضربت لهذا مثلا : وهو أن رجلا حمل ولده وأنزله فى بستان أو دار ثم تركه ، فجاء قوم ينازعونه فى إذن أبيه له ، ويقولون له نزلت هنا بغير إذن ، فلا شك أنه إن أقسم بالله ما نزل إلا بإذن من أبيه كان بارًّا فى قسمه ، فإذن أبيه حين أنزله هناك صريح ولو لم ينطق له بلسانه ، ولا يجحد هذا إلا غبى أو مكابر ، فالله تعالى يمن علينا بالفهم عنه فى أمورنا كلها آمين .

ثم ذكر مفهوم قوله بالإذن والتمكين فقال :

[**فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة**] .

قلت : أما النزول بسوء الأدب ، فهو أن يكون نزولهم فى طلب الأجور أو الحروف وهو الجزاء .

وأما الغفلة ، فهى رؤية النفس فى حال العمل ، وهو عندهم ذنب يستغفرون منه ، فاستغفارهم بعد الصلاة إنما هو من حضور نفوسهم فى عملهم ، ولذلك قيل :

* وُجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبُ *

والحاصل : أن أهل الحضرة نزولهم بالله وعملهم بالله ، لا يرون لأنفسهم حولا ولا قوة ، ولا يطلبون من ربهم جزاء ولا أجرة ، إذ محال أن يطلب الجزاء على عمل غيره ، هذا فى حال نزولهم إلى سماء الحقوق .

وأما نزولهم إلى أرض الحظوظ ، فإنما هو لأداء حقوق العبودية ، فليس نزولهم بشهوة النفس ونيل متعتها ، لتحقق فنائها وموتها ، قد انقلبت حظوظهم حقوقاً ، ولأجل ذلك المعنى قال سيدنا عمر رضى الله عنه : إنى لأتزوج النساء وأجامعهن وليس لى فى ذلك شهوة ، قالوا : ولم تفعل ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : رجاء أن يخرج الله من صلبى من يكثر به محمد صلى الله عليه وسلم أمته .

وقال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : إذا وافق الحق الهوى كان كالزبد مع العسل ، يعنى إذا وافقت النية الصالحة الهوى كان كالزبد مع العسل .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَابِعا لِمَا جِئْتُ بِهِ » .

فتحصل أن مقام الزوال يقتضى الفناء عن الحظوظ كلها ولم يبق إلا الواحد الأحد ، كما أبان ذلك بقوله :

[**بل دخلوا فى ذلك بالله ولله ومن الله إلى الله**] .

قلت : بل للإضراب عما تقدم من دخولهم فى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، أو نزولهم لأرض الحظوظ بالشهوة والمتعة ، وإنما دخلوا فى الحقوق أو الحظوظ بالله لتحقق فنائهم عن أنفسهم ولله لتحقق إخلاصهم ، ومن الله لشهودهم الفعل من الله ، وإلى الله لتحققهم أن الأمور ترجع كلها إلى الله . قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)[1] .

فأمر العباد كله قائم بالله وصادر منه ومنته إليه .

ثم استدل بالآية الكريمة على أن الدخول فى الأشياء والخروج منها يكون بالله فقال :

[**وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ، ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى ، وانقيادى إليك إذا أخرجتنى ، واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ينصرنى ولا ينصر علىّ ، ينصرنى على شهود نفسى ويفننى عن دائرة حسى**] .

قلت : الآية لها تفسير ظاهر وتفسير باطن ا هـ . أعنى على طريق أهل الإشارة .

أما تفسير أهل الظاهر فقالوا : هذه الآية نزلت فى فتح مكة ، وأن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الدعاء عند دخولها حال فتحها ، ومعناه : رب أدخلنى مكة مدخل صدق ، أى إدخال صدق ، بأن يكون دخولى بك واعتمادى عليك ناصراً لدينك بحولك وقوتك ، وهذا كقوله عليه الصلاة والسلام فى بعض أدعيته حين كان يقدم من سفره :

---

(١) هود : ١٢٣ .

« صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَاب وَحْدَهُ » .

وأخرجنى من مكة مهاجراً إلى جهاد عدوك مخرج صدق : أى إخراج صدق ، بأن أكون منصوراً بك ، معصوماً بحفظك ورعايتك ، واجعل لى من لدنك سلطاناً : أى برهاناً دامغاً لكل باطل نصيراً ينصرنى على من عادانى .

وأما تفسير أهل الباطن : فهو ما أشار إليه الشيخ رضى الله عنه مستدلا بالآية على أن دخول العارفين فى الأشياء كلها يكون بالله ، وخروجهم منها يكون بالله فقال : وقل أيها العارف : (رَبِّ أَدْخِلْنِي) فى الأشياء حقوقاً كانت أو حظوظاً (مُدْخَلَ صِدْقٍ) .

أى إدخال صدق ، بأن يكون ذلك الإدخال بك ، معتمداً فيه على حولك وقوتك متبرئاً من حولى وقوتى ومن شهود نفسى .

(وَأَخْرِجْنى) منها (مُخْرَجَ صِدْقٍ) .

أى إخراء صدق ، بأن أكون مأذوناً فيه بإذن خاص ، مصحوباً بالخشية وسر الإخلاص ، وهذا معنى قوله :

[**ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى**] فى الأشياء [**وانقيادى إليك إذا أخرجتنى**] منها :

(وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ) أى من مستبطن أمورك بلا واسطة ولا سبب (سُلْطَاناً) أى برهاناً قويًّا ، وليس ذلك إلا وارد قوىّ من حضرة قهار لا يصادمه شىء إلا دمغه فيحق الحق ويزهق الباطل ، ويكون ذلك السلطان .

[**ينصرنى ولا ينصر علىّ**] .

أى ينصرنى على الغيبة عن الحس وعن شهود السوى ، حتى نبعد عنهما برؤية مولاهما ولا ينصر على الوهم والحس وشهود الغيرية . ثم بين ذلك فقال :

[**ينصرنى على شهود نفسى**] .

أى يقوينى على الغيبة عنها ، فإذا انتصرت على شهودها انهزم عنى وذهب

شهودها وبقى شهود ربها ؛ فالنصرة على الشيء هو غلبته حتى يضمحل وينقطع ، وكأن شهود النفس عدو يحاربك ويقطعك عن شهود ربك ، فإذا نصرك الله عليه غلبته ودفعته عنك ، فتتصل حينئذ بشهود محبوبك ، وإذا فنى شهود النفس فنى حينئذ وجود الحس ، وهو معنى قوله :

[ويفنيني عن دائرة حسى] .

فإذا فنيت دائرة الحس بقى متسع المعانى وفضاء الشهود ، وهذه هى الولادة الثانية ، فإن الإنسان بعد أن خرج من بطن أمه وهى الولادة الأولى بقى مسجوناً بمحيطاته ، محصوراً فى هيكل ذاته ، قد التقمه الهوى ، وصار فى بطن الحس ، والوهم وسجن الأكوان المحيطة بجسمانيته ، فإذا فنيت دائرة حسه وخرج من بطن عوائده وشهوات نفسه ، نقبت روحه الكون بأسره ، وخرجت إلى شهود مكونها ، فقد ولد مرة ثانية ، وهذه الولادة لا يعقبها فناء ولا موت . قال تعالى :(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى) [1] .

وهذا معنى قول سيدنا عيسى عليه السلام : ليس منا من لم يولد مرتين ، هكذا ذكره الشطيبى من قول عيسى عليه السلام . وقال بعض الحكماء فى قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلٰكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ » .

قال الهجرة : هجرتان : هجرة صغرى ، وهى هجرة الأجساد من أوطانها . وهجرة كبرى : وهى هجرة النفوس عن مألوفاتها وعوائدها ، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام :« رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » .

جعل الجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، والجهاد الأصغر هو جهاد الجسم . وقال أيضا عليه الصلاة والسلام : « الْهِجْرَةُ بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

يعنى الهجرة الحسية والمعنوية ، فكل بلد لا يجد فيه من يعينه على دينه أو لا يجد فيه قلبه تجب الهجرة عنه ، وكل شهوة تقطعه عن ربه تجب الهجرة عنها ، وبالله التوفيق .

---

(١) الدخان : ٥٦ .

هذا آخر الكتاب الذى أرسله إلى بعض إخوانه .

وحاصله : بيان السلوك من أوله إلى آخره ، فهو يكفى ذوى الألباب عن مطالعة كل كتاب .

ثم ذكر الكتاب الثانى الذى أرسله لبعض إخوانه أيضًا فقال : وقال رضى الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه :

رسالة أخرى فى بيان الوصول

قلت : وكانت الرسالة المتقدمة فى بيان سلوك بدايتها ونهايتها ، وهذه الرسالة فى بيان الوصول إلى بحر الحقيقة مع مرٰاعاة حرمة الشريعة طرفان وواسطة : قوم فرّطوا ، وقوم أفرطوا وقوم توسطوا وجمعوا .

بين الشيخ الأقسام الثلاثة تتميماً للتقسيم ، فأشار إلى أصل التقسيم فقال :

[إن كانت عين القلب تنظر أن الله واحد فى مِنّته ، فالشريعة تقتضى أن لابد من شكر خليقته] .

قلت : عين القلب هى البصيرة ، ومن شأنها ألا ترى إلا المعانى دون المحسوسات ، كما أن البصر لا يرى إلا المحسوسات دون المعانى ، والحكم للغالب منهما ، فمن غلب بصره على بصيرته لا يرى إلا الحس وهو الغافل ، ومن غلبت بصيرته على بصره لا يرى إلا المعانى وهى معانى التوحيد وأسرار التفريد ، فالبصيرة لا ترى إلا نور الحق دون ظلمة الخلق ، لكن لابد من إثبات الحكمة ، وقد تقدم قوله : الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، فلابد من إثباتها قياماً بالحكمة ونفيها قياماً بالوحدة ، فإن كانت عين القلب تنظر إلى أن الله واحد فى مِنَّتِه ، بل واحد فى جميع تصرفاته ، فالشريعة والحكمة تقتضى : أى تطلب أن لابد من شكر خليقته . قال تعالى :

(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)[1] .

فإذا أنعم الله عليك بنعمة كانت دنوية أو دينية على يد واسطة فعليك فى ذلك

---

(١) لقمان : ١٤ .

وظيفتان : إحداهما قلبية : وهى اعتقادك أنها من الله بلا واسطة ؛ وأن ما سواه مقهور على إيصالها . والثانية لسانية : وهى أن تدعو له وتثنى عليه عملا بالشريعة ، فقد روى النعمان بن بشير عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكثيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشكرِ اللهَ » .

ومن أسمائه تعالى الشكور ، فليتخلق العبد بذلك .

وحكمة اعتبار الواسطة ثلاث : أولها أنها أرسال من الحق تحمل الهدايا إليك ، ومن الكرم إكرام الرسل . وثانيها أنها أوان تصل فيها إليك المنافع ، ومن الحكمة ترفيع آنية المنافع . وثالثها ما فى ذلك من دفع منة الوهم ، إذ الوهم يقتضى بطبعه الميل لمن أحسن إليك ، فإذا كافأته باللسان فقد أعتقت من رق إحسانه .

ثم قسم الناس باعتبار الحقيقة إلى طرفين وواسطة كما تقدم فقال :

[وإن الناس فى ذلك على أقسام ثلاثة] .

إما واقف مع الحس ناظر للأسباب ، أو غائب عن الحس وعن رؤية الأسباب ، أو جامع بينهما .

أو تقول : إما عامة أو خاصة ، أو خاصة الخاصة .

ثم أشار إلى الأول فقال :

[غافل منهمك فى غفلته] .

أى مسترسل فى غفلته مستغرق فى نومه ؛ لا يبالى بما وقع منه ، ولا يتنبه من نومه .

ثم بين أصل غفلته فقال :

[قويت دائرة حسه] .

أى قوى تكثيف حسه الدائر ، فتكثف حينئذ حجابه وعظم جهله ، فعظمت غفلته ، ولو فنيت دائرة حسه لاتصلت روحه بعالم الملكوت أو الجبروت فلم تر

إلا الجمع ، أو ترى الجمع فى عين الفرق ، والفرق فى عين الجمع ، لكن لما قويت دائرة حسه انطمس نور بصيرته كما قال :

[**وانطمست حضرة قدسه**] .

أى انطمست عنه حضرة القدس ، وهى شهود المعانى الملكوتية لانطماس بصيرته ، لأن هذه المعانى لا تدركها إلا البصيرة ؛ فلما انطمست البصيرة بقوة كثافة الحس انطمس نور حضرة القدس عنه .

ثم ذكر ما ترتب على انطماس حضرة القدس وهى شهود الخلق دون الحق فقال :

[**فنظر الإحسان من المخلوقين ، ولم يشهده من رب العالمين**] .

قلت : كل من لم يفن عن دائرة حسه ولم يغب عن شهود نفسه بشهود ربه ، لا يطمع أن يتحرر من رق إحسان الخلق ، إما اعتقادًا أو استنادًا ، ولو جاهد نفسه فى مراعاة التوحيد فلابد من الطبع أن يسرق ؛ بخلاف من تحقق بالزوال وغرق فى بحر الوحدة فلا يسرقه شىء ، وعلى تقدير غفلته فيكون سريع الانتباه .

ثم بين حال الفريقين فى نظر الإحسان من المخلوقين فقال :

[**إما اعتقاداً فشرك جلى**] .

أى لا خفاء فى أن من نسب الفعل لغير الله استقلالا أنه كافر خارج عن الإيمان وإن كان ظاهره متوسماً بوظائف الشريعة ، لأن من اعتقد خالقًا أو رازقاً مع الله استقلالا فهو كافر بالإجماع .

ثم ذكر الثانى بقوله :

[**وإما استناداً فشرك خفى**] .

قلت : الاستناد هو الميل الخفى بحيث إذا قلت له من الذى رزقك ؟ يقول : الله ، لكن الغالب أن قلبه يسبق إلى رؤية الخلق قبل رؤية الخالق ، وربما يقول بلسان الحال أو المقال : لولا الذى جاء من قبله ما كان ، ولولا الأسباب ما كانت المسببات ، فوقوفه مع ارتباط الأسباب دون النفوذ إلى مسبب الأسباب هو شركه الخفى .

ولو نبذ الأسباب ونفذت بصيرته إلى شهود مسبب الأسباب لتبرأ من الشرك الجلى والخفى ، ولتحلى بمقام الإخلاص الكامل الوفى ، وإليه أشار بقوله :

[وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق ، وفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب] .

قلت : الحقيقة هى شهود نور الحق فى مظاهر الخلق ، أو شهود نور الربوبية فى قوالب العبودية ، فصاحب الحقيقة هو الذى يغيب عن الخلق بشهود نور الملك الحق ويفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب .

فإن كان مع مراعاة الحكمة فهو كامل ؛ وإن كان من غير مراعاة الحكمة ، فإن كان غائباً مصطلماً فهو معذور وهو الذى بينه بقوله :

[فهذا عبد مواجه بالحقيقة] .

أى كوشف بنورها

[ظاهر عليه سناها] .

أى نورها ، فلما دهته الأنوار سكر وأنكر الحكمة . فهو باعتبار ما قبله كامل لاستغراقه فى بحر الوحدة ، وهو معذور فى نفيه الحكمة لغلبة وجده وظهور سكره ، وباعتبار ما بعده ناقص لقصور نفعه على نفسه ، وإن كان قد سلك الطريق وأتى على غايتها حتى وصل إلى التحقيق كما بين ذلك بقوله :

[سالك للطريقة] .

أى لولا سلوكه مع الطريق ما استنارت له معالم التحقيق ، وإنما فاته أنوار التشريع وأسرار الحكمة .

وأما الطريق فقد سلكها وأتى على غايتها كما ذكره :

[قد استولى على مداها] .

يعنى على غايتها ؛ فلا وصول للحقيقة إلا بعد سلوك الطريقة ، وتحقيق ظاهر الشريعة . قال تعالى : (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِهَا)[1] .

فلا باب لبيت الحقيقة إلا من جهة الشريعة والطريقة . فإذا وصل إلى الحقيقة فمن الناس من يكون صدره ضيقاً فلا يحتمل تلك الأنوار ، ولا يطيق

---

(١) البقرة : ١٨٩ .

مشاهدة تلك الأسرار ، فيغيب فى شهود الوحدة وينكر الحكمة : ومن الناس من يكون واسع الصدر قوى النور ، فإذا أشرقت عليه أنوار الحقيقة ، لم تغلبه عن القيام بالحكمة وصار برزخاً بين حقيقة وشريعة ، هكذا يكون سيره بين فناء وبقاء ، حتى يتمكن فيهما ، ويعتدل أمره بينهما وهذه حالة الأقوياء ، والطريقة الشاذلية جلها هكذا ، يسير أهلها بين حقيقة وشريعة حتى يقع التمكين والاعتدال .

ثم كمل الشيخ هذا القسم الذى غلبت عليه الحقيقة فقال :

[**غير أنه غريق الأنوار**] .

أى غلبت عليه أنوار الحقيقة حتى غاب عن أحكام الشريعة .

[**مطموس الآثار**] .

أى غائب عن شهود الكون من حيث إن الحق أثبته ليعرف به ، وهذا لما أشرقت عليه أنوار الحقيقة ضم الفروع إلى أصولها وأنوار الملكوت إلى الجبروت ، وأنكر الوسائط لغلبة السكر عليه كما بينه بقوله :

[**قد غلب سكره على صحوه**] .

السكر : وارد قوى يغيب القلب عن شهود الحس ، والصحو ذهاب ذلك الوارد حتى يرجع القلب إلى الإحساس بعد الغيبة وغلب عليه أيضاً .

[**جمعه على فرقه**] .

الجمع : رؤية الحق بلا خلق ، والفرق : رؤية الخلق بلا حق ، فإن كان بعد الجمع فهو رؤية الخلق والحق .

والحاصل : أن أهل الجمع لا يشهدون إلا الحق ، وأهل الفرق لا يشهدون إلا الخلق ويستدلون به على الحق . وأهل الفرق فى الجمع يشهدون الخلق والحق : أعنى يشهدون الواسطة والموسوط من غير فرق بينهما [و] غلب عليه أيضاً :

[**فناؤه على بقائه**] .

الفناء : الغيبة عن الخلق بشهود الحق ، والبقاء : شهود الخلق بالحق إن كان بعد الفناء . وإن كان قبل الفناء فهو شهود خلق بلا حق ، وهو محل أهل الحجاب [و] غلب عليه أيضاً .

[**غيبته على حضوره**] .

الغيبة : انقطاع القلب عن ملاحظة الخلق ، والحضور مشاهدة حضرة المولى بعد الغيبة عن شهود الحس والسِّوَى ، فهذه أحوال أهل الجذب من السالكين ، فإن كان لهم شيخ فلابد أن يخرجهم إلى السلوك وهو مقام البقاء ، فإن البقاء يطلب الجذب حتى يدركه كما يدركه عمره الطالب له .

فكان بعض أشياخنا يقول : أرنا من يفرق لنا ، نحن ضامنون له الخروج إلى البر وهو البقاء الذى أشار إليه الشيخ بقوله :

[**وأكمل منه عبد شرب فازداد صحوًا ، وغاب فازداد حضوراً ، فلا جمعه يحجبه عن فرقه ، ولا فرق يحجبه عن جمعه ، ولا فناؤه يصده عن بقائه ، ولا بقاؤه يصده عن فنائه ، يعطى كل ذى قسط قسطه ، ويوفى كل ذى حق حقه**] .

قلت : هذا هو القسم الثالث ، وهو مقام خاصة الخاصة ، وهم أهل الرسوخ والتمكين ، فكلما شربوا من خمر الحقيقة زاد صحوهم وتجوهر عقلهم ، وكلما غابوا عن شهود الخلق بشهود الحق زاد حضورهم ، فتراهم مستغرقين فى الفكرة والنظر ، ومع ذلك يحسون بدبيب النملة حتى يظن من لم يبلغ مقامهم أنهم من أهل الغفلة ، لكثرة ما بهم من الفطنة وهم مستغرقون فى الحضرة . وقد كان عليه الصلاة والسلام يصلى بالناس فإذا سمع بكاء الصبى خفف شفقة على أمه . فأهل هذا المقام الكامل لا يحجبهم جمعهم عن فرقهم ، فهم مجموعون فى فرقهم ، مفروقون فى جمعهم ، يشهدون الحق حال شهودهم الخلق ، ولا يصدهم فناؤهم عن بقائهم ، فهم فانون عن أنفسهم ، باقون بربهم ، ولا بقاؤهم يصدهم عن فنائهم ، فظاهرهم مشغول بالحس مثلا ، وباطنهم معمور بالمعنى . يعطون كل ذى حق حقه ، فيعطون الحقيقة حقها بشهود الحق فى الباطن ، والشريعة حقها باستعمال الجوارح فى حقوقها فى الظاهر ، ويوفون كل ذى قسط قسطه ، فيوفون الناس قسطهم من الإحسان ، والحق حقه فى توحيده بالجنان .

أو تقول : أفردوا الحق بالإنعام وشهود الإحسان ، وأثنوا على الوسائط باللسان .

أو تقول : أعطوا الربوبية حقها بشهود الإحسان منه وحده ، وأعطوا الخليفة بشكر الواسطة إقامة لرسم العبودية .

والحاصل : أن هذا هو كما قال الشاذلى رضى الله عنه : الجمع فى باطنك مشهود ، والفرق على لسانك موجود .

تنبيه : قد رأينا كثيراً من الناس يترامون على هذا المقام الكامل من غير صحبة ولا جذب ، ويزعمون أنهم يصلون إليه بإتقان علم الشريعة وعملها وهو غلط ، إذ لا سبيل إلى هذا المقام إلا بمروره على المقام الذى قبله وهو الجذب ، والاختطاف من شهود الأكوان إلى شهود المكوِّن ، ولابد من سكر ، ثم صحو وجذب ، ثم سلوك وجمع ، ثم فرق وفناء ، ثم بقاء . نعم قد يكون بعض الأفراد أقوياء يجذبون إلى حضرة الحق مع مشاهد الخلق ، ويسيرون بين جذب وسلوك كما تقدم فى الطريقة الشاذلية وأمثالها .

وأما من لم يصحب العارفين الذين سلكوا هذه المقامات فلا يطمع فى نيل هذا المقام أبداً إلا الفرد النادر الذى لا حكم له ، والله تعالى أعلم .

ثم استدل على المقام الثانى وهو الجذب والفناء ، والثالث وهو الصحو والبقاء ، بقضية السيدة عائشة مع أبيها فى قضية الإفك فقال :

[وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشكرى رسول الله . فقالت : والله لا أشكر إلا الله] .

قلت : قضية الإفك مشهورة مذكورة فى سورة النور تولى شرحها أهل الظاهر ، إلا أن ظاهر كلام الشيخ رضى الله عنه أن القائل لها هو أبوها ، والذى فى الصحيح أن الذى قال لها اشكرى رسول الله صلى الله عليه وسلم هى أمها . وفى رواية : « فقالت لى أمى لما نزلت براءتى من السماء : قومى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أشكر إلا الله » .

ويمكن الجواب بأن ذلك وقع بإشارة أبيها أو قالاه معاً أو سكوته كأنه وفاق ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الجواب عن امتناعها من شكر الواسطة فقال :

[دلها أبو بكر على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضى لإثبات الآثار].

قلت : المراد بإثبات الأثر بعد الفناء عنه إثباته بالله ونفيه بالله جمعاً بين القدرة والحكمة ، وإنما كان هذا أكمل مما قبله ؛ لأن هذا حاز المقامين : أعطى القدرة حقها فى الباطن وهو الشهود ، والحكمة حقها فى الظاهر وهى العبودية فهو سالك بنفسه ، دال لغيره ، كامل عالم معلم عارف معرف ، وهى غاية القصد والطلب ، لأنه مقام الخلافة التامة والمنافع العامة ، ولا شك أن الخير العام خير من الخير الخاص ، والخير العام هو الذى يعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه .

وسئل بعضهم عن قوله تعالى : (اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)[1] مع قوله تعالى : (فاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)[2] .

فقال له : اتق الله حق تقاته بقلبك ، واتق الله بجسمك ما استطعت ، فتكون جامعاً للشريعة والحقيقة ا هـ .

ثم استدل على إثبات الأثر بالكتاب والسنة فقال :

[وقد قال الله تعالى : أن اشكر لى ولوالديك] .

فأمر أولا بشكر من تولى نعمة الإيجاد ، وأمر ثانيا بشكر من ظهرت على يديه نعمة الإمداد ، فالواسطة ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، والآية صريحة فى إثبات الواسطة أدباً والغيبة عنها عقد لأجل التوحيد .

ثم ذكر دليل السنة فقال :

[وقال صلوات الله وسلامه عليه : لا يشكر الله من لا يشكر الناس] .

قلت : يصح فى اسم الجلالة الرفع على الفاعلية والنصب على المفعولية ، ومعنى الأول : الله تعالى لا يشكر فعل من لم يشكر الناس ولا يحبه . وعلى الثانى : من لم يشكر الناس لا يشكر الله : أى فلا يسمى شاكرًا لله وتقدم حديث النعمان بن بشير : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

ثم بين الجواب عن امتناعها من شكر الواسطة فى ذلك الوقت فقال :

[وكانت فى ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها] .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ .

(٢) التغابن : ١٦ .

قلت : الاصطلام نعت الحيرة ومحل الدهشة والغيبة : أى كانت رضى الله عنها فى ذلك الوقت غائبة عن حالها فانية عن حسها كما هو حال الجذب ؛ وقوله فى ذلك الوقت يقتضى أنه لم يكن ذلك شأنها على الدوام ، وإنما هو عارض قهرى وارد إلهى ، اختطفها عن حسها كما عرض ذلك لخليل الله إبراهيم جين عرض له جبريل فقال له ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى ، فلم يلتفت إلى الواسطة فقال له : سله ، فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى ، وكقوله عليه الصلاة والسلام : « لِي وَقْتٌ لَا يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي » .

فكانت عائشة رضى الله عنها فى ذلك الوقت :

[غائبة عن الآثار ، فلم تشهد إلا الواحد القهار] .

قلت : ومما يقوى عذرها فى شكر الله وحده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عَائِشَةُ اشْكُرِى اللهَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ بَرَّأَكِ » .

فهى راجعة لأمره فى عدم شكره كما قاله ابن أبى جمرة ، لكن بضميمة ما ذكره المؤلف ، إذ لا يصح مع الصحو إهمال الوسائط فى المقام الأكمل قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

فهذا آخر الرسالة التى كتبها لبعض إخوانه ، وهى فى غاية الإتقان والكمال ، فلو لم يكن فى هذا الكتاب إلا هذه الرسالة مع التى قبلها لكانت كافية ، فجزاه الله عن أهل الطريقة خيراً .

قرة عينى فى الصلاة

ولما كانت صلاة العارفين ليست كصلاة الغافلين تكلم فى هذه الرسالة الثالثة على قرة العين التى تكون فى الصلاة ، هل هى خاصة بالأنبياء أو للأولياء نصيب من ذلك ؟ فقال رضى الله عنه :

[لما سئل عن قوله صلوات الله وسلامه عليه : وجعلت قرة عينى فى الصلاة ؟ هل ذلك خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم أو لغيره منه شرب

ونصيب ؟ فأجاب إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود] .

قلت : قرة العين كناية عن شدة الفرح ، لأن بكاء الفرح دمعه بارد ، والقر : بالضم هو البرد ، يقال فى الدعاء أقر الله عينك : أى أفرحك حتى تبرد عينك بدموع الفرح ، ومضمن كلام الشيخ فى جوابه أن قرة العين فى الصلاة متفاوتة على قدر التفاوت فى المعرفة والشهود ، والمعرفة على قدر التخلية والتحلية ، فمعرفته عليه الصلاة والسلام لا يوازيها معرفة ، وشهوده عليه الصلاة والسلام لا يقرب منه شهود ، لكن قد تحصل المشاركة فى مطلق الشهود من حيث هو وتكون القرة على قدره ، فإذاً لورثته عليه الصلاة والسلام قسط ونصيب من قرة العين ، على قدر صفاء مشربهم وتفرغ قلوبهم وأسرارهم ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، فمن جملة ما ورثوه قسط من قرة العين فى الصلاة ، ولذلك كانوا يغيبون فيها ويجدون من النعيم واللذة فيها ما تعجز عنه العبارة . وقد كان منهم من يقطع الليل كله فى ركعة ، ويختم القرآن فى كل ليلة ، فلولا ما كانوا يجدون من حلاوة المناجاة مادامت لهم تلك الحالة . ويفهم هذا من قول الشيخ فى الجواب : إن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود ، فأتى بعبارة عامة تصدق بكل من له نصيب من الشهود ، لكن قرة عين الرسول صلى الله عليه وسلم لا يوازيها قرة عين أحد ، وكذلك الأنبياء عليهم السلام بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلى هذا أشار بقوله :

[والرسول صلوات الله وسلامه عليه ليس معرفة كمعرفته فليس قرة عين كقرته] .

قلت : لم يؤنث الفعل المجازى التأنيث فى الموضعين ، وإنما كانت معرفته عليه الصلاة والسلام لا يساويها معرفة ، لأن أول قدمه فى مقام الإحسان ، إذ لا مجاهدة له ولا سير له باعتبار الوصول ، لأنه واصل من أول قدم ، فنهاية الأولياء بداية الأنبياء ، ونهاية الأنبياء بداية الرسل ، وبدايته عليه الصلاة والسلام من نهاية الرسل ، وإنما قلنا لا سير له باعتبار الأصول ؛ لأن السير فى مجاهدة الأوصاف المذمومة وهو مطهر منها كما قال القائل :

خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وأما السير بمعنى الترقى فهو ثابت له على الكمال ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يترقى فى الساعة الواحدة مقامات ، ويستغفر من المقام الذى يترقى منه .

حكى عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه كان يستشكل قوله عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّهُ لَيُغَان عَلَى قَلْبِى فَأَسْتَغْفِرُ الله فى الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » . وفى رواية « مِائَةَ مَرَّةٍ » .

حتى رأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يامبارك غين أنوار لاغين أغيار ، ففهم حينئذ أن الغين هو التغطية، إنما هى أنوار الشهود ، أو هى تتفاوت بالقوة والضعف باعتبار الكشف ، فكلما كشف له عن مقام رأى ذلك المقام نقصًا باعتبار ما بعده ، ورآه حجابًا وتغطية لما فوقه وهكذا ، وعظمته تعالى لا نهاية لها ، ولذلك قال له : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا)[1] .

وقال أبو العباس رضى الله عنه : الأنبياء عليهم االصلاة والسلام خلقوا من الرحمة ، ونبينا عليه الصلاة والسلام هو عين الرحمة . قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[2] .

وقال الشيخ الحضرمى رضى الله عنه بعد كلام ذكره : فهو صلى الله عليه وسلم مظهر الحق الأكبر ، وهو أكبر مظاهر الحق فى الوجود ، فلذلك كان كل حرف من كلماته يوازى الجم الغفير ، وكل قطرة من فيض بحره توازى البحر الزاخر الكبير ، وأعظم من ذلك بألف ألف نقير وقطمير :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)[3] ا هـ المراد منه .

فتحصل أن مقامه عليه الصلاة والسلام فى العرفان لا يوازيه مقام ، وكذلك قرة عينه عليه الصلاة والسلام لا ينالها غيره من الأنبياء والأولياء ، وإنما يكون

---

(١) طه : ١١٤ .
(٢) الأنبياء : ١٠٧ .
(٣) الحجر : ٧٢ .

لهم من ذلك شرب ونصيب على قدر شهودهم ومعرفتهم .

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : إنما قال تعالى :

(سُبْحَانَ الذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ)[1] .

ولم يقل بنبيه ولا برسوله ليفتح باب السريان لغيره ، فمن له قسط من العبودية له قسط من الإسراء . ولما كان له عليه الصلاة والسلام كمال العبودية كان له كمال الإسراء فأسرى بروحه وجسده وليس ذلك لغيره اهـ . فإذا وقع الإسراء بالروح إلى الملكوت حصلت له قرة العين فى العبادة على قدر إسرائها ، وإسراؤها على قدر تصفيتها من العلائق والعوائق ، والله تعالى أعلم .

ولما كان جوابه بأن قرة العين بالشهود على قدر معرفته بالمشهود فيه خفاء عن المقصود بينه بقوله :

[وإنما قلنا إن قرة عينه فى صلاته بشهوده جلال مشهوده ، لأنه أشار إلى ذلك بقوله : « فى الصلاة » ولم يقل بالصلاة] .

قلت : لأن الأصل فى الظرفية أن تكون على بابها ، فقرة عينه صلى الله عليه وسلم إنما هى بشهود ربه ومسارته ومكالمته ، فالصلاة إنما هى محل لتلك القرة . وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « أَرِحْنَا بِهَا يَابِلَال » .

فالباء سببية : أى أرحنا بسببها ، وراحته عليه الصلاة والسلام إنما هى بمناجاة ربه لا بغيرها .

ثم ذكر علة كونه عليه الصلاة والسلام لا تقر عينه بالصلاة وإنما تقر عينه بربه فقال :

[إذ هو صلوات الله وسلامه عليه لا تقر عينه بغير ربه] .

فلا فرح له إلا به ، ولا سرور له إلا فى إقباله ، قد رفع همته عن الكونين ، وخلع نعله من الدارين ، ولأجل ذلك قال فيه القائل :

لَـهُ هِمَمٌ لَامُنْتَهَى لِكِبَارِهَا
وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ

---

(١) الإسراء : ١ .

لَـهُ رَاحَـةٌ لَـوْ أَنَّ مِعْشَـارَ جُـودِهَـا
عَلَى البرِّ كان البَرُّ أَنْدَى مِنَ الْبَحْرِ

[كيف وهو يدل على هذا المقام] .

وهو مقام الإحسان ، إذ به تحصل قرة العين .

[ويأمر به من سواه] .

من الأنام لقوله صلوات اللّه وسلامه عليه : « اعبد الله كأنك تراه » .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : لم يقع فى الحديث بهذا اللفظ وإنما وقع فى تفسير الإحسان :

« أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »اهـ .

قلت : وفيه نظر ، فإن فى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه :

« قُلْتُ : يارسُولَ الله أَوْصِنِى ، قالَ : اعْبُد الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فى المَوْتَى ، وَاذْكُرِ الله عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَعِنْدَ كُلِّ شَجَرٍ ، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فاعْمَلْ بِجَنْبِهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا ، السِّرُّ بالسِّرِّ ، وَالعَلانِيَةُ بالعلانيةِ » اهـ . رواه الطبرانى كما فى المنذرى .

ثم من كان يعبد الله كأنه يراه فلا يمكن أن يلتفت إلى رؤية ما سواه كما بينه بقوله :

[ومحال أن يراه ويشهد معه سواه] .

قلت : لأن ثبوت السِّوَى حجاب ، فلا يصح الشهود حتى يزول كل موجود ، ولا يبقى إلا واجب الوجود ، ويرى ما سواه كأنه ظلال أو خيال عند التحقيق مفقود .

فإن قلت : إذا كان السوى مفقودًا فلم قال عليه الصلاة والسلام فى تفسير الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه » وقال لمعاذ : « اعبد الله كأنك تراه » فأتى بكاف التشبيه إذا كانت الرؤيا حاصلة فكيف يشبهه عليه الصلاة والسلام بمن يرى ؟

فالجواب : أنه عليه الصلاة والسلام فى محل التشريع والتحقيق ، وهذا الحديث وقع فى محفل كبير فيه من هو من أهل المراقبة ، وفيه من هو من أهل المشاهدة ، فأتى بكلام يقبله الخاصِ والعام ، فالكل مخاطب بإتقان العبادة كأنه يشاهد ، فمنهم من بلغ ذلك ذوقا ، ومنهم من يكون منه ذلك مجاهدة .

وأيضًا شهود أنوار الملكوت سر من أسرار الربوبية لا تفشى لغير أهلها ، ولو قال عليه الصلاة والسلام : أن تعبد الله لأنك تراه ، أى ترى أنوار جبروته متدفقة لرياض ملكوته ، لكان فيه إفشاء لسرِ الربوبية ولا يفهمه إلا الخواص ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « خَاطِبُوا الناسَ بِقَدْرِ مايَفْهَمُونَ » .

فأتى بكلام موجه يقبله أهل الظاهر وأهل الباطن ، فأهل الظاهر يتركون الكاف على بابها ، وأهل الباطن يجعلونها بمعنى اللام ، لأن رؤية البصيرة عندهم فى معد العيان ، لأن البصر إذا فتحت البصيرة غلبت عليه ولم يبق له حكم أصلا .

وأيضًا الرؤية إذا أطلقت إنما تنصرف للبصر ، فلو لم يأت بالتشبيه لتوهم أن الله تعالى يرى بالبصر الحسى وهو محال ، قال الله تعالى :

(لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)[1] .

أى الحسية ، وإنما تراه البصائر المفتوحة ، فإذا انفتحت البصيرة استولت على البصر فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة من أنوار الملكوت ، والله تعالى أعلم .

ولما قرر الشيخ أن قرة عينه صلى الله عليه وسلم إنما هى بالله لا بالصلاة بحث معه باحث فأشار إلى البحث بقوله :

[قال له سائل : قد تكون قرة العين بالصلاة لأنها فضل من الله وبارزة من عين منة الله ، فكيف لا يفرح بها ؟ وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال تعالى : (فبذلك فليفرحوا)] .

---

(١) الأنعام : ١٠٣ .

قلت : مضمن البحث أن قوله عليه الصلاة والسلام :

« وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنى فى الصَّلَاةِ » .

يمكن أن تكون « فى » بمعنى الباء : أى بالصلاة ويكون وجه الفرح بها ، لأنها فضل من الله ورحمة وبارزة من منة الله ، وقد قال تعالى :

(قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِك فَلْيَفْرَحُوا)[1] .

فقد أمر الله تعالى عباده بالفرح بفضل الله وبرحمته والصلاة من ذلك ، فيجب الفرح بها وهى معنى قرة العين ، فأجاب :

[فقال اعلم أن الآية هذه قد أومأت] أى أشارت [إلى الجواب لمن تدبر سر الخطاب ، إذ قال : (فبذلك فليفرحوا) وما قال فبذلك فافرح ، يامحمد قل لهم ليفرحوا بالإحسان والتفضل ، وليكن فرحك أنت بالمتفضل كما قال فى الآية الأخرى : (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)] .

قلت : مضمن الجواب أن قرة العين بالصلاة إنما يصح أن تكون فى حق غيره ﷺ من أولياء أمته ، لأنهم يفرحون بفضل الله وإحسانه ، لأنها علامة على رضوانه ، وأما هو ﷺ فلا تكون قرة عينه إلا بالله ، ويدل عليه قوله تعالى : (فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا) .

ولم يقل فبذلك فافرح يامحمد ، فدل خطاب الآية أن الفرح بالفضل والرحمة إنما هو لأمته ﷺ ، وهو إنما يكون فرحه بالله لا بشىء دونه كقوله فى آية الأنعام : (قُلِ اللهُ ثم ذَرْهُمْ فى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)[2] .

والتحقيق : هو أن يقال : من تحقق بنعيم شهود الربوبية لم يكن فرحه إلا بشهود محبوبه دون غيره كائنًا من كان ، ومن كان مقيمًا فى محل العبودية ولم يذق شيئًا من مطالعة أنوار الربوبية لم يكن فرحه إلا بفضل الله ورحمته ، من ذاق ولم يتحقق يكون فرحه بهذا : أى تارة بهذا وتارة بهذا ، فعلى هذا يكون

---

(١) يونس : ٥٨ .

(٢) الأنعام : ٩١ .

لأكابر أمته ﷺ قسط من الفرح بالله دون ما سواه ، لكن لا يبلغون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن شهوده عليه الصلاة والسلام لا يساويه شهود ، فتكون قرة عينه كذلك ، والله تعالى أعلم .

خاتمة

فى ذكر الحديث الذى أشار إليه الشيخ وما يتعلق به

روى : « أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله صَنَعَ طَعَامًا لِرَسُول الله ﷺ ، فَاجْتَمَعَ هُوَ وَنَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُول الله ﷺ ، فِيهِمْ أَبُو بَكْر وَعُمَر وَعُثْمانُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ الله عَنْهُمْ ، فَتَذَاكَرُوا فى الطَّاعَةِ لله وَلِرَسُولِهِ ، إلى أَنْ قالَ أَبُوبَكْر : إِنَّمَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا يَارَسُولَ الله ثَلَاثٌ : إِنْفَاقُ مَالِى عَلَيْكَ ، وَالْجُلُوسُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَكَثْرَةُ الصَّلاةِ عَلَيْكَ . وَقَالَ عُمَرُ : وَأَنَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا ثَلَاثٌ : إِكْرَامُ الضَّيْفِ ، وَالصِّيَامُ فى الصَّيفِ ، وَالضَّرْبُ بَيْنَ يَدَىْ رَسُولِ الله بِالسَّيْفِ . وَقالَ عُثمانُ : حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا ثَلَاثٌ : إِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ ، وَالصَّلاةُ بِاللَّيْلِ وَالناسُ نيَامٌ . وَقالَ عَلِيٌّ مِثْلَ ذَلِكَ ، فقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ : وَأَنَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ : النِّسَاءُ ، وَالطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنى فى الصَّلَاةِ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فقَالَ : وَأَنَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا ثَلَاثٌ : تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ ، وَأَدَاءُ الأَمانَةِ ، وعِيادَةُ المرْضَى ، ثُمَّ غَابَ وَظَهَرَ وَقالَ : يَارَسُولَ الله ، وَرَبُّ الْعِزَّةِ يَقُولُ : وَأَنَا حُبِّبَ إِلَيَّ من الدُّنيا ثَلَاثٌ : لِسانٌ ذَاكِرٌ ، وَقَلْب شَاكِرٌ ، وَجِسمٌ عَلَى الْبَلاءِ صَابِرٌ » اهـ .

ذكره الشطيبى ، فالله أعلم بصحته ، غير أنه كلام صحيح فى نفسه .

والحكمة فى النساء الترغيب فى كثرة التناكح ، ليكثر النسل بمن يغمر هذا العالم . وأما الطيب ، فإنه ﷺ كان طيبًا نفحه الله فى الوجود فتعطرت به

الأكوان ، فكان عليه الصلاة والسلام ينفح طيبًا مس طيبًا أو لم يمسه ، كان يستعمل الطيب الكسبى يستر به الطيب الوهبى ، خشية أن يتغالى الناس فيه كما تغالوا فى عيسى عليه الصلاة والسلام . وقيل : إن الطيب من صفة أهل الجنة ، وقد كان عليه الصلاة والسلام فى الجنة فتطيب بطيبها ، والله تعالى أعلم .

رسالة أخرى فى الفرح بالمنن

ثم ذكر الرسالة الثالثة فى الفرح بالمنن بعد أن قدم الفرح بالله ، قال رضى الله عنه مما كتب به لبعض إخوانه :

[الناس فى ورود المنن عليهم على ثلاث أقسام] .

يعنى عوام وخواص وخواص الخواص .

ثم ذكر مقام العوام فقال :

[فرح بالمنن لا من حيث مبدؤها ومنشؤها ولكن بوجود متعته فيها] .

قلت : وهذا كالبهيمة ليس شأنه وهمّه إلا نفسه وحسه ،لله در ابن البنا حيث قال :

وَاعْلَمْ بِأَنَّ عُصْبَةَ الْجُهَّالِ بَهَائِمٌ فى صُوَرَةِ الرِّجَالِ

ثم ذكر حكمه فقال :

[فهذا من الغافلين] .

لأنها : أى النعم إذا أقبلت عليه اشتغل بها عن ذكر معطيها تلذذًا وترفهًا ، وإذا أدبرت اشتغل فكره بطلبها والحرص عليها ، وإذ نالها شغلته متعتها عن شكرها ، فيكون ذلك سببًا فى زوالها . قال تعالى :

(وَلئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ)[1] وربما يصدق عليه قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً)[2] .

---

(١) إبراهيم : ٧ .

(٢) الأنعام : ٤٤ .

فالآية وإن نزلت فى الكفار فحكمها عام ، فكل من اشتغل بنعم الدنيا وزخارفها عن ذكر الله وما طلب منه يصدق عليه أنه فرح بما أوتى ، فبينما هو منهمك فى غفلته مستغرق فى شهوته أخذه الموت بغتة فإذا هو مبلس : أى آيس من الرجوع إليها ومن الانتفاع بها ، وقد تؤخذ منه قبل موته فتشتد حسرته عليها ، وقد تقدم : من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ؛ من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرف بفقدانها .

ثم ذكر القسم الثانى وهو مقام الخواص فقال :

[**وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها**] .

قلت : ويستفيد أيضًا إقبال من أرسلها عليه وذكره بها . أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام : ياموسى اعلم أننى إذا أعطيتك تمرة مسوسة فإنى قد ذكرتك بها ، فاشكرنى عليها فإنه لا يعطيكها غيرى اهـ . فتكون تلك النعمة سببًا يجره إلى محبة المنعم فيترقى إلى الدرجة الثالثة .

ثم ذكر شاهد هذا القسم من القرآن فقال :

[**فيصدق عليه قوله تعالى : (فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)**] .

قلت : يعنى فيكون فرحه بفضل الله وهو الإيمان ورحمته وهو القرآن وغير ذلك (هو) : أى فضل الله ورحمته ، (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا وشهواتها الغرارة ، وأنشدوا :

طَلِّقِ الدُّنْيَا ثَلَاثًا ... وَالْتَمِسْ زَوْجًا سِوَاهَا
تُبْ إِلَى رَبِّكَ مِنْهَا ... وَاحْتَرِسْ قَبْل أَذَاهَا
إِنَّهَا زَوْجَةُ سُوءٍ ... لا تُبَالِى مَنْ أَتَاهَا !
أَنْهَ نَفْسَكَ عَن الْغَىِّ ... وجَانِبْ هَوَاهَا

قيل : إن بعض العباد أراد إبليس فتنته ، فجاءه من باب الرغبة فى الدنيا فوجده قد سده بالزهد والقناعة ، فجاءه من باب الشهوة فوجده قد سده بدوام الحزن والكآبة ، فجاءه من باب الغضب والحدة ، فوجده قد سده بالتواضع والاستكانة ، فصاح وقال هذا عبد قد تحصن منى فليس لى عليه سبيل .

وفى الخبر : « إنَّ المُنَادِى يُنَادِى يوْمَ الْقِيَامَة : أَيْنَ أَصْحابُ المَتَاجِرِ الرَّابِحَةِ مِنْ أَهْلِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ؟ فَيَقُومُ الأَوْلِيَاءُ وَالأَصْفِيَاءُ وَالعُبَّادُ والزُّهَّادُ ، فَيُؤْتَونَ بِنَجَائِبَ مِنَ النُّورِ فَتَطِير بِهِمْ نَحْوَ العرْشِ وَتَسْبِقُهُمُ المَلاَئِكَةُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إلى أَنْ تُنْزِلَهُم فى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الجَنَّةِ ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ : هِذِهِ أَحْمالُكُمْ وَفِيهَا أَعْمالُكُمْ . وَيُنادِى المُنَادِى أَيْضًا : أَيْنَ أبناءُ الدُّنْيَا » أى المخلفون والمقصرون « أَيْنَ مَنْ عَصَى المَوْلَى ؟ هَلُمُّوا إلَى دَارِ البَلْوَى ، فَيَأْتُونَ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَايَزِرُونَ فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى العَذَاب »اهـ .

ثم ذكر القسم الثالث وهم خواص الخواص فقال :

[وفرح بالله ، ما شغله من المنن ظاهر متعتها ولا باطن منتها] .

قلت : ظاهر متعتها ، هو حظ البشرية ، وهو اللذة الحسية ، وهو حال أهل المقام الأول : أعنى الغافلين : وباطن منتها : هى ذكر المنعم وإقباله عليه وهو حال أهل المقام الثانى .

وأشار إلى حال أهل المقام الثالث فقال :

[بل شغله النظر إلى الله عما سواه] .

من المتعة الحسية أو المعنوية [و] شغله [الجمع] على الله بالتوكل [عليه] فكفاه شئونه وأموره حتى لم يبق له اهتمام بغير مولاه ، بل أغناه به عما سواه .

[فلا يشهد إلا إياه] ولا يحب شيئًا سواه.

ومما وجد فى بعض الكتب المنزلة : يقول الله تعالى : عبدى إن أطعتنى واليتك ، وإن اتقيتنى قرّبتك ، وإن استحييت منى أكرمتك ، وإن توكلت على كفيتك ، وإن عصيتنى عاقبتك ، فعقوبتى لك من أجلك لا من أجلى ، جل قدرى وعظم فضلى .

عبدى إنى أعلم منك مالو علمته زوجتك لسألتك الطلاق ، ولو علمه عبدك لسألك العتاق ، ولو علمه أبوك لهان عليه الفراق .

عبدى إن جئتنى تقول أسأت أقول لك وأنا قد غفرت ، وإن قلت تبت أقول وأنا قبلت اهـ .

ثم ذكر مصداق هذا القسم الثالث فقال :

[قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون] .

قلت : المراد بالقول فى هذا المقام القول القلبى ، أى اذكر الله على الأشياء كلها تفن ولم يبق إلا مولاها ، ثم اترك الناس فى وهمهم يلعبون ، ومن جملة الأشياء النعم التى يتجلى بها ، فإذا ذكر الله عليها غاب فى شهوده عنها ، واستغنى به عن كل ماسواه .

قال الشبلى رضى الله عنه : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . وقال أبو محمد الجريرى رضى الله عنه : من رأى النعم ولم ير المنعم فقد حجب عن الشكر ، ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكره اهـ .

تنبيه : كثيرًا ما يستدل الصوفية بهذه الآية على الانقطاع إلى الله والغيبة عما سواه ، وهو تفسير إشارة لا تفسير معنى اللفظ ، لأنها نزلت فى الرد على اليهود حيث قالوا : (مَآ أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ) فقال لهم الحق تعالى : (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الذِى جَآءَ بِهِ مُوسى)[1] .

فلما لم يجيبوا قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل الله ، أى قل لهم أنزله الله ، ثم لا تجادلهم ، بل ذرهم فى خوضهم يلعبون ، والصوفية رضى الله عنهم يقرون الظاهر على ظاهره ويقتبسون إشارات خفية ، لا يعرف مقصودهم غيرهم ، ولذلك رد عليهم بعض المفسرين حيث لم يعرف قصدهم : (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ)[2] .

وأما ذكر هذا الاسم باللسان مجردًا ففيه ثلاثة أقوال : أحدها الجواز مطلقًا . والثانى الكراهة مطلقًا . والثالث التفصيل ، يجوز لأهل النهايات دون أهل البدايات ، والمشهور الأول ، وعليه طريق الشاذلية ومن تعلق بهم ، والله تعالى أعلم .

---

(١) الأنعام : ٩١ .

(٢) البقرة : ٦٠ .

ولما استدل بما فى كتابنا ذكر ما فى كتاب من قبلنا ، فقال :

[وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود قل للصديقين ، بى فليفرحوا ، وبذكرى فليتمتعوا] .

قلت : لا يكمل الفرح بالله حتى يخلو القلب من محبة ما سواه ، فما دام العبد متعلقًا بشىء من السِّوى فلا يكمل فرحه بالله ، ولا يتم تنعمه بذكر الله .

أو تقول : مادامت الروح مسجونة فى سجن الهيكل لا يتم فرحها بالله ، ولا تتنعم بذكر الله ، فإن تخلصت من سجن البدن وتحررت من رق الأكوان كمل فرحها بالواحد المنان ، وأنشدت :

أَنْتُمْ سُــرُورِى وَأَنْتُمْ مُـشْتَكَى أَلَمِـى
وَأَنْتُمُ فى ظَــلَامِ الـلَّيْــلِ أَقمــارِى
فَــإِنْ نَــطَقْتُ فَلَمْ أَنْــطِقْ بِغَيْــرِكُمُ
وَإِنْ صَمَتُّ فَــأَنْتُمْ عِقـدُ إِضْمــارِى

وهذا هو الفرح الحقيقى والسرور الأصلى وما سواه أعراض لأغراض .

قال المقدسى : السرور أعلى من الفرح ، لأن الفرح ربما شيب بالحزن الذى هو مقابله والسرور لاحزن معه . وقيل : هما شىء واحد .

وقال بعضهم : السرور على ثلاثة أقسام : بداية ، ووسط ، ونهاية .

فبداية السرور يذهب به خوف القطيعة ، وظلمة الجهل ، ووحشة الفراق .

وأما وسطه ، فإنه يكشف حجاب العلم ، ويفك رق التكليف ، وينفى التدبير والاختيار .

وأما غايته ، فإنه يمحو آثار الوحشة ، ويقرع باب المشاهدة ، ويضحك وجه الروح لبشارة التجلى ، ففى بداية الفرح والسرور يحصل التصديق ، وفى وسطه يحصل الأنس ، وفى نهايته يحصل الجمع والوصال اهـ .

وقد ضرب بعضهم مثلا للأقسام الثلاثة : أعنى من يفرح بالنعم من حيث إنه ينال فيها شهوته ، أو يشهد فيها منّته ومعونته ، أو يفرح بالمنعم وحده ، فقال :مثل ذلك كثلاثة رجال قدموا على السلطان فأعطى لكل واحد فرسًا وسيفًا .

أما أحدهم فقال : هذا فرس نتمتع به . ونركب عليه فى حوائجى ، ونقاتل به عدوى ، ففرح به من حيث يقضى به مآربه وشهواته ، وليس فى قلبه محبة للملك ، إنما جاء لقضاء حاجته .

وأما الآخر فقال : هذا فرس نستعين به على خدمة الملك ، وعلى القدوم عليه ، وعلى مجاهدة عدوه ، ففرح بالفرس من حيث إنه يستعين به على حوائج الملك ومآربه دون حوائج نفسه .

وأما الثالث ، فقال : إن الملك يحبنى ويعظمنى حتى أعطانى هذا الفرس ، فهذا اعتناء من الملك وإقبال علىّ ، ففرح بالفرس من حيث إنه يدل على محبة الملك له واعتنائه به ، فهذا مثل للأقسام الثلاثة ، وقد أشبع الغزالى الكلام فى هذا المعنى فى باب الشكر ، فانظره إن شئت .

ثم ختم رسالته بدعاء مناسب فقال :

[والله يجعل فرحنا وإياك به] .

أى دون غيره ، والمخاطب هو المرسل إليه هذه البطاقة ، أو كل من يطالع كتابه أو يحفظه ، أو يعمل به ، أو من يسمعه وقرئ عليه ، وإذا كان فرحنا وحده كنا من القسم الثالث الذى هو مقام خواص الخواص ، ومن كان فرحه بالله كان راضيًا به ومرضيًّا عنه كما قال :

[وبالرضا منه] :

أى ويجعل فرحنا بالرضا من قبله بحيث لا نرضى بشىء دون رضاه عنا ، فنكون راضين به مرضيًا عنا . قال تعالى : (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)[1] .

ومن تحصن بها تحصن من الغفلة بحصن منيع ، ولذلك قال :

[وألا يجعلنا من الغافلين] .

الذين يفرحون بالنعم دون شهود المنعم . وقد اشتمل دعاؤه على الأقسام الثلاثة من باب التدلى ، فالفرح بالله هو المقام الثالث ، وبالرضا منه هو الثانى . واحترز من الأول بعدم جعله منه ، وإذا خرج من حرز الغفلة حصل على اليقظة

---

(١) المجادلة : ٢٢ .

وهى جماع التقوى الذى أشار إليه بقوله :

[**وأن يسلك بنا مسلك المتقين**] .

الذين اتقوا الشرك والمعاصى أولا ، والشهوات والعوائد ثانيًا ، والسوية والغيرية ثالثًا ، وهو معنى قوله تعالى :

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين)[1] .

فالتقوى على ثلاثة أقسام بحسب المقامات :

فتقوى أهل مقام الإسلام حفظ الجوارح من المخالفات اتقاء سخط الله ، وإليهم توجه الخطاب بقوله تعالى : (فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُم)[2] .

وتقوى أهل مقام الإيمان حفظ القلوب من الهفوات والخطرات ، وإليهم توجه الخطاب بقوله تعالى : (وَاتَّقُونِ يَاأُولِى الأَلْبَاب)[3] .

فإذا تطهر القلب من الهفوات والخطرات منح بشهود معانى الصفات .

وتقوى أهل مقام الإحسان حفظ السر مما سوى الله ، فإذا تطهَّر السر من الأغيار منح شهود الأنوار وهى عظمة الذات ، ولكل مقام من مقامات التقوى بواعث تبعث على تقواهم . فالباعث لأهل مقام الإسلام على تقواهم ، رجاء الثواب ، وخوف العقاب ، فتقواهم على سبيل الخوف والرجاء . والباعث لأهل مقام الإيمان على تقواهم ، شهود الجلال والجمال ، فتقواهم على سبيل الهيبة والحياء . والباعث لأهل مقام الإحسان على تقواهم ، شهود العظمة والكمال ، فتقواهم على المحبة والتعظيم ، وأنشدوا :

فَكُنْ أَيُّهَا العَبْدُ المَعَنَّى أَخَا تُقًى
حَثِيثَ التَّرقِّى فى المَعَارِجِ وَاللُّطْفِ

---

(١) المائدة : ٩٣ .
(٢) التغابن : ١٦ .
(٣) البقرة : ١٩٧

وَثِقْ بِلَطِيفِ الصُّنْعِ تَحْظَ بِفَضْلِهِ
وَخَلِّصْ إِلَيْهِ القَصْدَ يُغْنِيكَ بِالْعَطْفِ
وَفوِّضْ وَسَلِّمْ وارقَ فى دَرَجِ الصَّفَا
عَلَى الكَوْنِ تحْظَى بالمَعارِفِ وَالعرْفِ
وَتُدْرِكُ مَا أَمْسَى الْوَرَى عَنْهُ فى غِنًى
وَتَعْرِفُ أَشْيَاءً تَجِلُّ عَنِ الْوَصْفِ

ومن حصل مقام التقوى ، وحاز منها الغاية القصوى ، دام عليه السرور والفرح ، وذهب عنه الحزن والترح .

روى أن رابعة العدوية رضى الله عنها لقيت عتبة الغلام وهو يتبختر فى قميص جديد فقالت له : ما هذا التيه والعجب الذى ما رأيته منك قبل اليوم ؟ فقال : ومن أولى بهذا منى وقد أصبح لى مولى وأصبحت له عبدًا .

وقال ذو النون : رأيت شيخًا فى الركب يمشى وبيده مصحف وهو يقرأ ويهتز ويرقص فى مشيته ، فقلت : ياشيخ ما هذا الرقص ؟ فقال : قلت فى نفسى عبد من أنا ؟ وكلام من أنا أتلو ؟ وبيت من أنا قاصد ؟ فهزتنى حالة الفرح ، وأطربنى ذلك من غير قصد منى اهـ .

ثم توسل فيما طلب بمنة الله وكرمه فقال :

[بمنه وكرمه] .

أى إنما أطلب ما تقدم من منة الله وكرمه لا بسبب عمل ولا حال ، وكل هذا اعتماد على مولاه فيما أولاه ، وتولاه فى مبدئه ومنتهاه .

وهاهنا انتهى الكتاب ، ومابقى إلا مناجاة الكريم الوهاب .

المناجاة

قال بعض الشراح : هذه المناجاة على قسمين : قسم يقضى بالتعريض والتأهب . وقسم يشهد بالتحقيق والتأدب ، وأكثر ما يظهر فضلها للتالى فى وقت الأسحار وبعد صلاة الصبح ، فلها هناك سر عظيم وفتح جسيم ، فمن

لازمها فى ذينك الوقتين وجد بسطًا زائدًا على العادة ، ولها خواص وأسرار يعرفها من جرّبها من العباد والزهاد ، والطالبين لمعرفة رب العالمين ، وقد ذكر بعضها الشيخ ابن عباد فى نظم الحكم فقال :

لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا بِهِ المَنَاجَاةُ ... سِيَاقُهُ حَقَّتْ لَهُ المُرَاعَاةُ
لِكَوْنِهِ يُهَذِّبُ الْأَسْرَارَا ... وَيَجْلِبُ الْأَضْوَاءَ وَالأَنْوَارَا
وَأَنْتَ يَاخِلِّى وَيَاصَفِيِّى ... إِنِ انْتَهَجْتَ نَهْجَ ذَا الوَلِيِّ
وَسُقْتَهُ مَسَاقَهُ الْجَمِيلَا ... مُنْكَسِرًا وخَاضِعًا ذَلِيلا
رَأَيْتَ فى بَاطِنِكَ الزِّيَادَهْ ... وَالخَيْرَ وَاسْتَبْشَرْتَ بالسَّعَادَهْ

ووجه مناسبتها لما قبلها أن القلب إذا انبسط بالفرح بالحبيب ، انطلق اللسان لمناجاة القريب ، فقال فى أولها :

[إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى ؟] .

قلت : إنما ابتدأ مناجاته بالتحقيق بالفقر لما يعقبه من سرعة الغنى ، وقد قلت فى قصيدة تقدمت :

تَحَقَّقْ بِوَصْفِ الْفَقْرِ فى كُلِّ لَحْظَةٍ
فَمَا أَسْرَعَ الإِغْنَاءَ إِذْ صُحِّحَ الْفَقْر

قال الشيخ أبو عثمان فى قوله تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)[1] .

التضرع : هو أن تقدم افتقارك وعجزك ، وعارك وضرورتك ، وقلة حولك وقوتك وليس التضرع بالإجهار ، ولا يكون للطاعات إظهار اهـ .

يقول رضى الله عنه : أنا الفقير فى غناى الوهمى الادّعائى فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى الحقيقى الأصلى ؟ فغناى بموافقة الأسباب الظاهرة ليس وجوده منى ولا بقاؤه بيدى ، فأنا فقير فى حالة وجوده ، فكيف لا أكون فقيرًا فى حالة فقده .

---

(١) الأعراف : ٥٥ .

أو يقول : أنا الفقير فى حالة حياتى التى يظهر فيها صورة غناى بعشيرتى وأحبابى ، فكيف لا أكون فقيرًا بعد مماتى حين يتخلف عنى أحبابى وجيرتى .

أو يقول : أنا الفقير إليك فى حال غناى بك فلا غنى لى عن زيادة مددك ، وهذا كما قال القائل :

أَنـــا الْـفَقِـيرُ إِلَـيْكُـمْ وَالْغَـنِيُّ بِكُـمْ
وَلَيْسَ لِى بَعْـدَكُمْ حِرْصٌ عَـلَى أَحَدِ

فكيف لا أكون فقيرًا فى حال فقرى إليك . إذا كنت فقيرًا فى حال نظرى إلى غناى بك ، فكيف لا أكون فقيرًا فى حال نظرى إلى فقرى إليك ؟ ولله در القائل :

إِنِّى إِلَيْـكَ مَـعَ الْأَنْفَـاسِ مُحْتَـاجُ
لَوْ كَانَ فى مَفْرَقِى الْإِكْلِيلُ والتَّاجُ

وفى إظهار الفاقات إلى الله ، وإنزال حوائجه بساحة مولاه ، مع رفع الهمة عما سواه من الحظوظ والمكانة وعزازة القدر عند الله ، ما يكلّ عن وصفه اللسان . ويعجز عن حمله واسع الجنان .

قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : ما أظهر عبد فقره إلى الله تعالى فى الدعاء إلا قال له الحق لبيك ، لكنه لا يستطيع سمع ذلك .

وقد تقدم كلام الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة ، يقول الله تعالى : ما رفع عبد حاجته إلىّ دون خلقى أعلم ذلك من نيته فتكيده السموات السبع والأرضون السبع إلا جعلت له فرجًا ومخرجًا من أمره ، أو كما قال .

وقال أبو القاسم القشيرى : من أشار إلى الله ثم رجع بحوائجه إلى غيره أفقره الله إلى الخلق ، ثم نزع له الرحمة من قلوبهم ، ومن شهد محل افتقاره إلى الله ورجع بحوائجه إليه أغناه الله من حيث لا يحتسب ، وأعطاه من حيث لا يرتقب .

قيل لبعض المحققين : أيطلب العبد الرزق ؟ قال : إن علم أين هو فليطلبه ، قال : قيل أيسأل الله ؟ قال : إن علم أنه نسيه فليذكره ، قيل :

أيتوكل على الله ؟ قال : إن كان فى شك فليختبره ، قيل : فأى شىء يعمل ؟ قال : ما أمره اهـ .

فليثق العبد بربه ، وليشتغل بما أمر به ، وليكن كما قال بهلول المجنون : نعبده كما أمرنا ، وهو يرزقنا كما وعدنا ، ولا يتعلق بمخلوق أصلا قلبًا ولا قالبًا ، وليمح الخواطر التى تخطر بباله من هذا المعنى ، قبل أن تستحكم فيه فيعاقب بالحرمان ، ويرمى بالخذلان .

قال إبراهيم الخواص رضى الله عنه : تهت فى البادية حتى ضرنى الحال ، فسمعت نباح كلب فأصغيت إليه وأخذت نحوه ، فإذا بلص قد صفعنى ، فقلت فى نفسى : هذا جزاء من توكل على مخلوق ، فقيل لى فى سرى : ياإبراهيم مادمت فى خفارتنا ، أى جوارنا وعهدنا كنت عزيزًا ، فلما دخلت فى خفارة كلب سلط عليك الخلق ، فتبت إلى الله تعالى ، وإذا بالذى صفعنى قد سقط عن جرف وطار رأسه اهـ وأنشدوا :

مَـدَدْتُ يَـدِى أَرْجُـو نَـوَالاً وَرَحْمَـةً
وَمَـا لِى شَفِيعٌ غَـيْرُ جُودِكَ وَالـرَّجَـا
فَجُـدْ لِى بِعَفْوٍ مِنْـكَ وَارْحَمْ تَـذَلُّـلِى
فَـأَنْتَ الَّذِى أَعْـطَيْتَنِى الْفَقْرَ وَاللَّجَـا

ثم إن الفقر والجهل من أوصاف العبودية ، كما أن الغنى والعلم من أوصاف الربوبية ، فلما أدلى بفقره إلى غنى مولاه ، أدلى بجهله إلى سعة علم مولاه ، فقال فى المناجاة الثانية :

[**إلهى أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جاهلا جهولا فى جهلى ؟**] .

قلت : يقول رضى الله عنه : أنا الجاهل فى علمى العارض الذى علمتنى ، فكيف لا أكون جاهلا فى جهلى الأصلى الذى فيه أركزتنى ؟

أو يقول : أنا الجاهل فى حال نسبتى إلى العلم الذى علمتنى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى الذى هو أصلى ومحلى ؟ وما نسبة علم العبودية فى

جانب علم الربوبية إلا كنقرة العصفور من البحر ، كما قال الخضر عليه السلام لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى :

(وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَليلا)[1] وقال : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ)[2] وقال تعالى : (وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكم لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا)[3] .

فالعلم العارض لا يدفع الجهل الأصلى ، هذا باعتبار الحكمة والنظر إلى أصل البشرية .

وأما الروحانية فأصلها علامة دراكة ، لأنها نموذج ربانى ولطيفة نورانية ، فإنما حجبها كثافة البشرية وظلمة الطبيعة كما قال فى المباحث :

فَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نُفوسِ الْأَحْيَا عَلَّامَةً دَرَّاكَةً لِلأَشْيَا
وَإِنَّمَا تَحْجُبُهَا الأَبْدَانُ وَالأَنْفُسُ النُّزَّعُ والشَّيْطَانُ
فَكُلُّ مَنْ أَذَاقَهُمْ جِهَادَهْ أَظْهَرَ لِلْقَاعِدِ خَرْقَ الْعَادَهْ

ثم إن من تحقق بفقره الأصلى لا يسكن إلى غناه العارض ، ومن تحقق بجهله الأصلى لا يسكن إلى عمله الفرعى ، فإن الأمور كلها بيد الغنى الكريم ، والقلوب كلها بيد المدبر الحكيم ، كما أبان ذلك فى المناجاة الثالثة بقوله :

[إلهى إن اختلاف تدبيرك ، وسرعة حلول مقاديرك ، منعا عبادك العارفين بك من السكون إلى عطاء ، واليأس منك فى بلاء] .

قلت : اختلاف التدبير . هو إقامة كل عبد فى حكمته ، على حسب إرادته ومشيئته ، من فقر أو غنى ، من علم أو جهل ، من عز أو ذل ، من قبض أو بسط ، من سقم أو صحة أو مرض ، من إيمان أو كفر ، إلى غير ذلك من اختلاف آثار القدرة ، وتنوع مظاهر الحكمة . وسرعة حلول المقادير ، هو تبديل تلك الأحوال فى أسرع حال ، من فقر إلى غنى ، ومن غنى إلى فقر ، ومن علم

---

(١) الإسراء : ٨٥ .
(٢) البقرة : ٢٥٥ .
(٣) النحل : ٧٨ .

إلى جهل ، ومن جهل إلى علم ، ومن عز إلى ذل ، ومن ذل إلى عز ، ومن قبض إلى بسط ، ومن بسط إلى قبض ، ومن سقم إلى صحة ، ومن صحة إلى سقم ، ومن إيمان إلى كفر والعياذ بالله ، ومن كفر إلى إيمان ، فقلوب الخلق بيد الله الواحد القهار ، يقلبها كيف يشاء ويختار ، ويفعل بها ما يشاء :

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[١] .

فإذا تحقق العبد بهذا امتنع من أن يسكن إلى ما أعطاه مولاه ، لأنه قد يسلبه ذلك فى ساعة ، وامتنع أيضًا أن ييئس من مولاه فى وقت شدته وبلواه ، قال تعالى : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)[٢] .

ودوام الحال من قضايا المحال لكن لم يتحقق بهذا ذوقًا إلا العارفون ، فلذلك لا يسكنون إلى عطاء ، ولا ييئسون فى بلاء ، بل يسكنون إلى من بيده المنع والعطاء ، فلذلك لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير الله قرارهم ، ودليل ما قاله الشيخ قوله تعالى : (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ)[٣] .

ولا مفهوم لليوم ، بل فى كل لحظة هو فى شأن ، يرفع أقوامًا ويخفض آخرين ، يعز قومًا ، ويذل آخرين ، يميت قومًا ويحيى آخرين ، يعطى قومًا ويمنع آخرين ، من أمور يبديها لا يبتديها .

وقال بعضهم فى تفسير الآية : كل يوم يجهز ثلاثة عساكر : عسكرًا من الأصلاب إلى الأرحام ، وعسكرًا من الأرحام إلى الدنيا ، وعسكرًا من الدنيا إلى القبور ، ثم يرتحلون إلى الله جميعًا اهـ . وقد تقدم بعض الكلام على علامات العارف .

وقال الشطيبى فى هذا المحل : فقلوب العارفين تشاهد بنوره ولا مشاهد للحق سواه ، ومنازلات الربوبية خارجة عن رسوم البشرية ، فعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة يرى فيه ما غاب من غيره ، وجلاء القلب لا يكون إلا بنور الإيمان والإيقان ، فعلى قدر قوة الإيمان يكون نور القلب ، وعلى قدر نور القلب

---

(١) الأنبياء : ٢٣ .
(٢) الشرح : ٥ ، ٦ .
(٣) الرحمن : ٢٩ .

تكون مشاهدة الحق ، وبقدر مشاهدة الحق تكون المعرفة بأسمائه وصفاته ، وبقدرهما يكون التعظيم لذاته ، وبقدر التعظيم لذاته يكون كمال العبد ، وبقدر كماله يكون استغراقه فى أوصاف العبودية ، وبقدر استغراقه فى أوصاف العبودية يكون قيامه بحقوق الربوبية :

(وَمَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ)[1] اهـ .

قلت : وبقدر قيامه بحقوق الربوبية يكشف له عن أسرار الألوهية وأنشدوا :

كَانَتْ مُحَادَثَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِى عَنْ فَضْلِكُمْ وَسَنَاكُمْ أَطْيَبَ الخَبَرِ
حَتَّى الْتَقَيْنَا فَلَا وَاللهِ مَاسَمِعَتْ أُذْنِى بِأَحْسَنِ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِى

ومن أوصاف العبودية بعد الفقر والجهالة الخساسة واللآمة ، كما أن من أوصاف الربوبية بعد الغنى والعلم والإحسان والكرم ، فأدلى الشيخ بذكر لآمة نفسه إلى كرم مولاه وإحسانه ، فقال فى المناجاة الرابعة :

[**إلهى منى ما يليق بلؤمى ، ومنك ما يليق بكرمك**] .

اللؤم : بضم اللام وسكون الهمزة ، هو الشح والدناءة . وفى القاموس : لؤم بالضم ضد كرم .

يقول رضى الله عنه : إلهى يظهر منى من الدناءة والخساسة واللآمة والمساوى ما يليق بلآمتى ودناءتى ، ويظهر منك من المبرة والإحسان والكرامة والامتنان ، وتغطية المساوى والنقصان ، ما يليق بكرمك الزآخر ، وكمال إحسانك الباهر ، فقابل إساءتنا بإحسانك ، وغط مساوينا بوصف كرمك وامتنانك ، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة ، ياأكرم الأكرمين .

حكى عن بعض الناس أنه قال : إلهى كم أعصيك وأنت تسترنى ؟ فسمع قائلا يقول : لتعلم أنى أنا وأنت أنت .

وقيل : إن الله تعالى خلق ملكًا ينادى : يابن آدم يامسكين ، كنت فى العدم مفقودًا فمن ذا الذى صيرك نسخة الوجود إلا الكريم ذو الجود ؟ من ذا الذى

---

(١) الزمر : ٦٧ .

أبرزك من عالم الغيب لعالم الشهود ؟ من ذا الذى استنقذك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ؟ من ذا الذى تكفل بشئونك إلا الكريم المنان ؟ فكن مطيعًا لله تكن عبده حقًا ، ولا تطع نفسك وهواك فتكون لهما رقاً اهـ .

ومن كرمه تعالى : أن سبقت رحمته غضبه . ومن كرمه أيضًا إقباله على العاصى والمطيع ، ففى الحديث الصحيح :

« لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخلقَ قَالَ لِلْقَلَمِ : اكْتُبْ ، قَالَ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ رَحْمَتِى سَبقَتْ غَضَبِى ، فَكَتَبَهُ وَأَلْقَى الْكِتَابَ فَوْقَ الْعَرْشِ » زاد بعضهم : « فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ الْكِتَابَ فَيَقْرؤُه كُلُّ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ السَّعَادة ، وَيُحْجَبُ عَنْ أَهْلِ الشَّقاوَةِ » .

وفى الحديث أيضا ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا وَاحِدَةً إلَى الأَرْض وَأَمْسَكَ عِنْدَه تِسْعًا وَتِسْعِينَ ، فَمِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ الْوَاحِدَةِ التى أُهْبِطَت إلى الأَرْضِ تَرَاحَمَت الخَلائِقُ بَيْنَهُمْ ، حَتَّى إنَّ الدَّابَّةَ لَترْفَعُ حافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أنْ تُصِيبَهُ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ضَمَّ تِلْكَ الرَّحْمَةَ إلَى التِّسْعِ وَالتِّسْعِين وَنَشَرَهَا بَيْنَ عِبَادِهِ ، فَتَسَعُ الخَلقَ كَافَةً ، وَيُحْرَمُ مِنْهَا مَنْ هُو كَافِرٌ » وهو معنى قوله تعالى : (وَرَحْمَتِى وَسِعَت كُلَّ شىءٍ) .

ويروى : « أنَّ رَجُلًا اصْطَادَ أَفْرَاخًا ، فَلَمَّا أَخَذَهُم جَعَلَتْ أُمُّهُمْ تَطِيرُ فَوْقَهُمْ ثُمَّ سَقَطَتْ عَلَيْهِمْ فَضَمَّهاَ مَعَ أَوْلَادِهَا ، فأَتَى بِهَا النَّبِي ﷺ فَأَخْبَره خَبَرهَا ، فقال عليه الصلاة والسلام : أَتَعْجَبُونَ لِهَذَا الطَّائِرِ ؟ وَالله لله أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المؤْمِن مِنْ هذا الطَّائِرِ بِأَفْرَاخِهِ » .

وروى عنه ﷺ قال :

« يَخْرُجُ مِنَ النَّار رَجُلَان ثُمَّ يمثلَانِ – بَيْنَ يَدَى الله ، فَيُؤمَرُ

بِرُجُوعِهِمَا إِلَى النَّار فَيُسْرِعُ أَحَدُهُمَا فيُلقى نَفْسَهُ فيهَا وَيَتَعَاصَى الآخَرُ عَنِ الرُّجوعِ فَيُقَالُ لِلَّذِى رَمَى بِنَفْسِهِ : لِمَ أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ فى النارِ ؟ فَيَقُولُ : لِئَلَّا أَكُونَ عَاصِيًا فى الدُّنْيَا ثُمَّ أَكُونَ عَاصِيًا فى الآخِرَة . وَيُقَالُ للآخرِ : لِمَ لَمْ تَمتَثِلِ الأَمْرَ كَمَا فَعَل هذَا ، فَيَقُولُ : رَجَوْتُ مِنْ كَرَم الله أَلَا يُعيدَنِي إِلَيْهَا بَعْدَ أَنْ أَخْرجَنِي ، فَيُؤمَرُ بهِمَا إِلَى الْجَنَّةِ » وأنشدوا :

وَلو أن فِرْعوْنَ لَمَّا طَغَى وَقَالَ عَلَى الله قَوْلًا عَظِيما
أَنَابَ إِلَى الله مُسْتغْفِرًا لَمَا وَجَدَ الله إِلَّا رحيمَا

وكيف لا يرجى حلمه وكرمه وشمول لطفه ورحمته وقد سبق وجود العباد لطفه ورأفته ؟ كما أبان ذلك فى المناجاة الخامسة حيث قال :

[إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى ، أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى ؟] .

قلت : اللطف بالضم الرفق والمبرة وصلاح العبد فى عاقبته ، وفى القاموس : لطف لطفًا بالضم : رفق ودنا ، ولطف الله بك : أوصل إليك مرادك بلطف اهـ والرأفة شدة الرحمة وأرقها ، قال فى القاموس أيضًا : والضعف : ضد القوة .

يقول رضى الله عنه شاكيًا إلى الله ضعفه وفقره ، ومستمدًّا من مولاه لطفه ورأفته إلهى وصفت نفسك فى كتابك العزيز الذى أنزلته إلينا باللطف والرأفة ، فقلت فيه :

(الله لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ)[1] وقلت : (وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءوفٌ رَحيمٌ)[2]

واتصافك باللطف والرأفة قديم ، فإذا كنت بنا لطيفًا رحيمًا قبل وجود ضعفنا ، فكيف لا تمنحنا من لطفك ورأفتك بعد ظهور ضعفنا ؟ لطفت بنا ونحن للطف غير محتاجين ، أفتمنعنا منه عند احتياجنا إليه وأنت أرحم الراحمين ؟ أجريت علينا رفقك قبل أن تبرزنا إلى دارك أفتمنعنا منه بعد ظهورنا مع عظيم إبرارك ؟ ومن تفكر فى عجائب صنع الإنسان وما خصه الله به من كمال الخلق

(١) الشورى : ١٩ .
(٢) الحديد : ٩ .

والإتقان ، وما يلحقه من ضروب المنن والإحسان : وجد نفسه مغمورًا فى لطف مولاه ، مرفوقًا به فى أول منشئه ومنتهاه .

قال بعض الحكماء : قد أدركت العقول مما أودع فى الإنسان اثنتى عشرة ألف حكمة ، وأما الذى لم تدركه العقول فلا يعلمه إلا الله ، هذا فى خاصة نفسه ، وأما فى غذائه وشرابه ولباسه وسائر لوازمه فأكثر من ذلك ، قال تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[1] وقال : (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)[2] الآية .

فسبحان من أعجزت العقول بدائع ألطافه ، وقصرت الأفكار عن عظيم أوصافه : (وَهُوَ اللطِيفُ الخَبِيرُ)[3] .

ما أكثر لطائفه للمبتدئين ، وأوضحها للمستيقظين ، وأعظمها فى جميع المخلوقين ، قد سرى لطفه فى جميع الأكوان ، وأبهرت حكمته أفكار الإنس والجان ، وأنشدوا :

أَحَاطَ بِتَفْصِيلِ الدَّقَائِقِ عِلْمُهُ
فَأَتْقَنَهَا صُنْعًا وَأَحْكَمَهَا فِعلَا
فَمِنْ لُطْفِهِ حِفْظُ الْجَنِينِ وَصَوْنُهُ
بِمُسْتَوْدَعٍ قَدْ مَرَّ فيهِ وَقَدْ حَلّا
تَكَنَّفَهُ بِاللُّطفِ فى ظُلُمَاتِهِ
وَلَا مَالَ يُغْنِيهِ هُنَاكَ وَلَا أَهْلَا
وَيَأْتِيه رِزْقٌ سَابِغٌ مِنْهُ سَائِغٌ
يَرُوحُ لَهُ طَوْلًا وَيَغْدُو لَهُ فَضْلَا
وَمَا هُوَ يَسْتَدْعى غِذَاءً بِقيمَةٍ
وَلَا هُوَ مِمَّنْ يُحْسِنُ الشُّرْبَ وَالأَكْلَا

---

(١) التين : ٤ .
(٢) عبس : ٢٤ .
(٣) الأنعام : ١٠٣ .

جَـرَى فى مَجـارِى عِـرْقـهِ بِتَلَطُّفٍ
بِـلا طَلَبٍ جَرْيًـا عَلَى قَـدْرِهِ سَهْـلَا
وَأَجْرَى لَهُ فى الثَّـدْىِ لُطْفَ غِـذَائِهِ
شَـرَابًـا هَنِيئـاً مَـا أَلَـذَّ وَمَـا أحـلى
وَأَلْهَـمَـهُ مَصًّـا بَـحِكْمَـةِ فَـاطِـرٍ
تَجَـلَّى لَأَرْبَـابِ الْعُقُـولِ بِمَـا أَوْلَى
وَأَخَّـرَ خَلْقَ السِّنِّ عَنْـهُ لِـوقْتِهَـا
فَـأَبْـرَزَهَـا عَـوْنًـا وَجَـاء بِهَـا طَـوْلا
وَقَسَّمهَـا لِلْقَـطْعِ وَالْكَسْـرِ قِسْمَـةً
وَلِلطَّحْنِ أَعْطَى كُلَّ قِسْمٍ لَهَا شَكْلَا
وَصَـرَّفَ فى لَـوْكِ الـطَّعـامِ لِسَـانَـه
يُصَـرِّفُـهُ عُلْوًا إِذَا شَـاء أَوْ سُفْـلَا
وَلَـوْ رَامَ حَصْـرًا فى تَيَسُّـرِ لُقْمَـةٍ
وَأَلْـطَافَـهُ فِيـمَا تَكَـنَّفَـهَـا كَـلَّا
فَكَمْ خَـادِمٍ فِيهَا وَكَمْ صَـانِعٍ لَهَـا
كَـذَلِـكَ مَشْـرُوبٌ وَمَلْبَـسُـهُ كُـلا
وَكَمْ لُـطَفٍ مِنْ حَيْثُ تَحْذَرُ أُكْـرِمَتْ
وَمَا كُنْتَ تَدْرِى الفَرْعَ مِنْهَا وَلَا الْأَصْلَا
وَمِـنْ لُـطْفِـهِ تَكْلِيفُـهُ لِعِبَـادِهِ
يَسِيـرًا وَأَعْـطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْجَـزْلَا
وَمِـنْ لُـطْفِـهِ تَـوْفِيقُهُمْ لِإِنَـابَـةٍ
تُـوَصِّـلُ لِلخَيْـرَاتِ مِنْ حَبْلِهِمْ حَبْـلَا

وَمِنْ لُـطْفِـهِ بَعْثُ النَّبِى (مُحَمَّـدٍ)
لِيَشْفَـعَ فى قَـوْمٍ .وَلَيْسـوا لَهـا أَهْـلَا
وَمِنْ لُـطْفِـه حِفْظُ الْعَقَـائِـدِ مِنْهُم
وَلوْ خَالَفَ الْعَاصِى الْمسىء وَإِنْ زَلَّا
ومِنْ لُـطْفِـهِ إِخْـرَاجُـهُ عَسَـلًا كـما
نُشَـاهِـدُ مِمَّـا كـانَ أَوْدَعَـه النَّحْـلَا
وَإِخْـرَاجُـهُ مِنْ بَـيْنِ فَـرْثٍ مُجَـاوِرٍ
دَمًـا لَبَنًا صِـرْفًا بِـلَا شَـائِبٍ رِسْـلَا
وَإِخْـرَاجُـهُ مِنْ دُودَةٍ ملْبَسًـا لَـهُ
رِوَاقًـا عجيبًـا أَحْكَمَتْـهُ لَنـاَ غَـزْلَا
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا خَلْقُـهُ القلب عَـارِفًـا
بِـهِ شَـاهِـدًا بِـلَا شَبِيـهٍ وَلَا مِثْـلَا
وَأَلْـطَافـهُ البَحْـرُ المحيطُ فَخُـذْ بِمَـا
بَـدَا لَكَ وَاشْهَـدْهَـا وَإِيَّـاكَ وَالجَهْـلَا
وَصَلِّ عَلَى الْمُخْتَـارِ أَفْضَـلِ مُرْسَـلٍ
عَلَى خَـالِص الْعِرْفَانِ بالله قَـدْ دَلَّا

فهذه ألطافه الواصلة إلينا ، ومحاسنه الجارية علينا .

فإن وفقنا سبحانه للقيام بشكرها بمحاسن الأفعال والأقوال فذلك من فضله وكرمه ، وإن صرفنا عن شكرها بظهور مساوى أفعالنا فبقهره وعدله ، كما أبان ذلك فى المناجاة السادسة فقال :

[إلهى إن أظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة علىّ ، وإن ظهرت المساوى منى فبعدلك ولك الحجة علىّ] .

قلت : ظهور المحاسن على الإنسان فى أقواله وأفعاله وأخلاقه هو من منة الله العظيمة وهداياه الجسيمة ، لأنه عنوان المحبة والقبول ، وذلك هو غاية

المطلوب والمأمول ، وظهور المساوى على العبد فى أقواله وأفعاله ، هو من عدله تعالى وقهره ، وإظهار الحجة عليه . قال تعالى :

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَداكُمْ أَجْمِعِينَ)[1] .

فالعبد لبس له مع الحق اختيار ، ولا قدرة على نفع ولا إضرار ، فإن صرفه سيده فيما يرضى فلظهور اسمه الكريم ، وإن صرفه فيما لا يرضى فلتصريف اسمه الحكيم ، أو لإظهار اسمه القهار ، أو المنتقم أو الجبار ، فالنواصى بيده ، والقلوب بين أصبعيه .

دعاء للشاذلى

ولله در الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه حيث يقول فى بعض أدعيته : اللهم إن حسناتى من عطائك ، وسيئاتى من قضائك ، فجد اللهم بما أعطيت على ما به قضيت حتى تمحو ذلك بذلك ، لا لمن أطاعك فيما أطاعك فيه الشكر ، ولا لمن عصاك فيما عصاك فيه العذر ، لأنك قلت وقولك الحق :

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) .

اللهم لولا عطاؤك لكنتُ من الهالكين ، ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين ، وأنت أجل وأعظم وأعز وأكرم من أن تطاع إلا برضاك ، أو أن تعصى إلا بقضائك .

إلهى ما أطعتك حتى رضيت ، ولا عصيتك حتى قضيت ، أطعتك بإرادتك ولك المنة علىّ ، وعصيتك بقدرتك ولك الحجة على ، فبوجود حجتك وانقطاع حجتى إلا ما رحمتنى ، وبفقرى إليك وغناك عنى إلا ما كفيتنى .

اللهم إنى لم آت الذنب جرأةً منى عليك ، ولا استخفافًا بحقك ، لكن جرى بذلك قلمك ، ونفذ به حكمك ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، والعذر إليك ، وأنت أرحم الراحمين .

---

(١) الأنعام : ١٤٩ .

اللهم إن سمعى وبصرى ولسانى وقلبى وعقلى بيدك لم تملكنى من ذلك شيئًا ، فإذا قضيت بشيء فكن أنت وليى واهدنى إلى أقوم سبيل ، ياخير من سئل ويأأكرم من أعطى ، يارحمن الدنيا والآخرة ، ارحم عبدًا لا يملك دنيا ولا آخرة اهـ . وهو الذى اختصره الشيخ فى هذه المناجاة بأحسن عبارة وأوجز لفظ ، فلله دره ، وهذا شأنه فى تهذيب طريق الشاذلية ، جزاه الله عن المسلمين خيرًا ، ومثل هذه المناجاة وقعت من بعض الصالحين .

روى أن شابًّا من العباد تعلق بأستار الكعبة وقال : إلهى إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد ، وإن عصيتك فبجهلى ولك الحجة على ، فبإثبات حجتك وانقطاع حجتى إلا ما غفرت لى ، فسمع هاتفًا يقول : أنت عتيق من النار اهـ .

وقال ذو النون رضى الله عنه : رأيت جارية والصبيان يرمونها بالحجارة ، فكففتهم عنها ، فنظرت إلى وقالت كأنها تعرفنى : ياذا النون ما علامة الصدق ؟ قلت : صيام النهار وقيام الليل ، فقالت : ياذا النون كيف يلذ النوم لمن علم أن حبيبه لا ينام ؟ ثم بكت وقالت : إلهى إن فكرت فى إحسانك إلىّ لم أبلغ كنهه بفكرى ، وإن ذكرت سترك على لم أقم فيه بشكرى ، فياعجبًا لقلوب العارفين بك ! كيف لاتنفطر إجلالا لقدرك وإعظامًا لوصفك ، تباركت يامولانا ما أحلمك على من عصاك ، وما أفضلك على من لم تدع له شغلا بسواك ، ثم أنشدت :

يَاحَبِيبَ القُلوب أَنْتَ الحبِيبُ ... أَنْتَ أُنْسِى وَأَنتَ مِنِّى قَرِيبُ
يَـاطَبِيبًـا بِـذِكْـرِهِ يَتَـدَاوَى ... كُلُّ سُقْمٍ فَنِعْمَ ذاك الطَّبِيبُ
طَلَعَتْ شَمْسُ مَنْ أُحِبُّ بِلَيْلٍ ... وَاسْتَنَارَتْ فَمَا تَلَاهَا غُرُوبُ
إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ لَيْلًا ... وَشُمُوس الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ
فَإِذَا مَا الظَّلَامُ أَسْبَلَ سِتْرًا ... فَـإِلَى رَبِّهَـا تَحِنُّ الْقُلُوبُ

وإذا حنت القلوب إلى مولاها ، وانضمت إليه بعشقها وهواها ، كيف يكلها إلى غيره وهو قد تولاها ؟ وكيف لا ينصرها وهو إليه قد آواها ، كما أبان ذلك فى المناجاة السابعة بقوله :

[إلهى كيف تكلنى] أى تحوجنى إلى غيرك .
[وقد تكفلت لى] . بأمورى وشئونى كلها حيث قلت :
(وَمَنْ يَتَوَ كَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)[١] وقلت : (ومَا مِنْ دَابَّةٍ فى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا)[٢] .

[وكيف أضام] أى أظلم وتنتهك حرمتى .
[وأنت الناصر لى] .
فتنصرنى وتنصر لى وتنصر بى ، وقد قلت فى كتابك الحكيم :
(إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)[٣] وقلت وقولك الحق : (إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[٤] وقلت وحكمك حق : (وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ المؤمِنِينَ)[٥] .

فانصرنا ياخير الناصرين ، كما نصرت أنبياءك ورسلك وخاصة أوليائك المقربين ياأرحم الراحمين .
[أم كيف أخيب] . أى أحرم وأمنع من الخير .
[وأنت الحفى بى] أى المعتنى بأمورى ، أو الرفيق بى فى جميع أحوالى . قال تعالى : (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)[٦] وقال : (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ)[٧] .

فتولنا يامولانا برعايتك ، وحفنا بعنايتك ، واجعلنا بك منتصرين ، وعليك متوكلين يارب العالمين .
[ها أنا أتوسل بفقرى إليك] .
حتى من فقرى وافتقارى ، إذ لانسبة لى منك سوى فقرى إليك ، فأنا فقير

---

(١) الطلاق : ٣ .
(٢) هود : ٦ .
(٣) الحج : ٣٨ .
(٤) محمد : ٧ .
(٥) الروم : ٤٧ .
(٦) البقرة : ٢٥٧ .
(٧) الأعراف : ١٩٦ .

إليك من كل شيء حتى من فقرى . فإن كان الأغنياء قد قدموا بين أيديهم الأموال ، فأنا أقدم إليك فقرى فى جميع الأحوال ، وإن كان الأقوياء قد قدموا إليك صالح الأعمال فأنا أقدم إليك التضرع والابتهال .

مَـالِي سِوَى فَقْـرِى إِلَيْـكَ وسِيلَةٌ
فَبِـالِافْتِقَـارِ إِلَـيْـكَ رَبِّى أَضْـرَعُ
مَـالِي سِوَى قَـرْعِى لِبَـابِـكَ حِيلَةٌ
فَلَئِـنْ رُدِدْتُ فَـأَىّ بَـابٍ أَقْـرَعُ

وأى نسبة لفقر العبد من غنى مولاه كما قال :

[**وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك**] .

لأنك غنى عن الانتفاع بالمنافع ، فأغننا بك عن الاحتياج إلى غيرك ، حتى ألقاك بك لا بغيرك ، إنك على كل شيء قدير .

روى أن شيخ أشياخنا القطب الجامع مولاى عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه قال للشيخ أبى الحسن رضى الله عنه : ياأبا الحسن بم تلقى الله ؟ قال بفقرى ، قال له :

والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقاه بالصنم الأعظم ، هلا لقيته به ؟ وكأنه رضى الله عنه دله على الزوال عن نفسه وعن كل ما ينسب إليها من فقر وغيره .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ويجاب عن أبى الحسن بأنه أراد بفقره حتى من فقره المنسوب إليه وهو الزوال ، فإذا صح افتقاره من كل شيء فقد صح غناه بالله عن كل شيء . وإذا صح غناه بالله فما يلقى الله إلا بالله . قال الهروى رضى الله عنه : فقر العامة ترك الدنيا ، وفقر الخاصة ترك الدنيا والآخرة ، وفقر خاصة الخاصة ترك الدنيا والآخرة والنفس اهـ . وإظهار هذه الأمور بين يدى العليم الخبير عبودية فقط ، ولذلك قال :

[**أم كيف أشكو إليك حالى وهو لا يخفى عليك**]

إذ محال أن يخفى عليك شيء فى الأرض ولا فى السماء .

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)[1] ، (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) ، (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ)[2] .

فحسبى من سؤالى علمه بحالى .

[**أم كيف أترحم إليك بمقالى**] عما فى ضميرى .

[**وهو**] أى مقالى .

[**منك برز**] .

إذ لا موجد سواك ، غير أن مقام الربوبية يقتضى وظائف العبودية وهى إظهار الفاقة والاحتياج والتضرع باللسان والابتهال ، دون طلب دفع ما قدر أو جلب ما لم يقدّر ، كما قال الشيخ أبو الحسن : ولا نسألك دفع ما تريد ، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد ، كما أيدت أنبياءك ورسلك وخاصة الصديقين من خلقك إنك على كل شىء قدير .

[**أم كيف تخيب آمالى**] أى مطامعى وحوائجى .

[**وهى وفدت عليك**] أى نزلت بساحة كرمك ، وعلى ساحل بحر جودك ، وحطت الأحمال على باب فضلك ، والتجأت إلى حصن عزك ، وكيف تخيبون آمال الطامعين وباب كرمكم مفتوح ؟ أم كيف يحرم قاصدكم وبحر فضلكم وإحسانكم ممنوح ؟ أم كيف يضام جاركم وجاه عزكم منيع ؟ أم كيف يخفر جواركم ونفوذ أمركم فى الأشياء سريع ؟ وأنشدوا :

أَيُضَامُ عَبْدٌ فِى حِمَاكُمْ قَدْ نَزَلْ
يَامَنْ لَهُمْ كُلُّ الأَمَانِى وَالأَمَلْ ؟

[**أم كيف لا تحسن أحوالى**] .

بل لا تكون إلا فى غاية الحسن والكمال [**و**] الحال أنها .

[**بك قامت**] .

إذ لا قيام للعبد إلا بالله ، ولا وجود له من ذاته بذاته ، وكل من كان بالله

---

(١) طه : ٧ .

(٢) الملك : ١٤ .

ومن الله وإلى الله ، فكيف يلحقه النقص والخلل ، ولذلك قال :

[**وإليك**] .

أى قامت بقدرتك وانتهت إلى أمرك ومرادك ، فالأمور كلها أنت مبدئها ومصدرها ، وإليك منتهاها ومرجعها . قال تعالى :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)[1] وأنشدوا :

أَقْبِــلْ عَلَيْنَـا لا تَخَفْ فَلَنَــا الْهُـدَى
وَلَنَا اَلْجلالُ مَنَعَ الجَمَالِ خُـذِ الصَّفَا
وَاْقصِـدْ حِمَـانَـا مَـا أَتَــانَـا مُــذْنِبٌ
إِلَّا نجَا لَوْ كَانَ مِنَ الذُّنُوبِ عَلَى شَفَا

اللهم إنا قصدنا حماك خاضعين . ولجنابك منتسبين ، وبحبل جوارك متمسكين ، وبعز جاهك مستعزين ، وبنصرك السريع مستنصرين ، فانصرنا ولا تنصر علينا ياخير الناصرين . حاشا عهدك الوافى ، ونصرك الكافى ، أن تخذل من دخل تحت جوارك ، أو تطرد من وقف ببابك ، ياخير من سئل ، ويأأكرم من أعطى ، ارحم عبدًا لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، برحتك ياأرحم الراحمين .

[**إلهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى ، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى**] .

*ت : هذه المناجاة الثامنة ، وهى تتميم لما قبلها ، لأن الحق إذا كان وكيلا لك وناصرًا لك وحفيًّا بك ، فقد لطف بك وأنت لا تشعر ، فاللطف هو سوق المسار من حيث المضار ، أو سوق المنافع فى قالب الفجائع .

والحاصل : أن اللطف هو جلب الخير جلبًا لطيفًا لا يعرفه إلا أهل البصائر ، فاللطف الجميل هو الذى يكون باطنه نعمة وظاهره نقمة ، باطنه جمال وظاهره جلال ، فالعارف بالله يرى نفسه مغمورًا فى اللطف فى كل حال ، ولذلك قال الشيخ رضى الله عنه فيما تقدم : من ظن انفكاك لطفه عن قَدَره فذلك لقصور نظره ، وأما الجاهل بالله فلا يشعر باللطف إلا إذا كان حسيًّا ظاهرًا

---

(١) هود : ١٢٣ .

جليًّا ، ولذلك قال الشيخ فى هذه المناجاة تواضعًا وتنزلا : إلهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى ، حيث جهلت لطفك الخفى وطلبت لطفك الجلىّ ، ولو عاملنا الحق تعالى بمقتضى جهلنا لنزع لطفه الخفى عنا وتركنا مع مرادنا ، ولكنه سبحانه حليم فلم يعاملنا بمقتضى جهلنا ، فلطف بنا مع عظيم جهلنا ، ولذلك تعجب الشيخ من شدة لطف الله به مع عظيم جهله، وهذا كما قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : إذا سألت الله العافية فاطلبها من حيث تعلم أنها لك عافية .

وقال أيضًا فى مرضه حين قال له إنسان : أسأل الله لك العافية ، قال له : ما أنا فيه هو العافية ، وقد سأل العافية أبو بكر رضى الله عنه فمات مسمومًا ، وسألها عمر رضى الله عنه فمات مطعونًا ، وسألهاعثمان رضى الله عنه فمات مذبوحًا ، وسألها على رضى الله عنه فمات مقتولا اهـ .

فالعافية واللطف ، هو الرضا والتسليم ، وسكون القلب عند مجارى الأقدار ، والرحمة هى اللطف والمحبة والتقريب ، فالحق تعالى يريد أن يقرّب عبده إليه ، ويطوى مسافة البعد بينه وبينه ، بما يسلط عليه من إذابة الخلق والفقر والأمراض ، وغير ذلك مما يؤلم النفس . ثم إن العبد يفر منها ، ويسأل الله أن يبعده منها ، لأجل جهله وقبيح فعله ، ولذلك ورد فى بعض الأخبار : يقول الله تعالى : ياعبدى كيف أرحمك بدفع ما به أرحمك ؟ أو كما قال ، وهذا معنى قوله : إلهى ما أرحمك بى مع قبيح فعلى ، وهو هروبى مما به رحمتنى . ويحتمل أن يريد بقبيح الفعل الذنوب والمعاصى فإنها توجب المقت والبعد ، فلو عاملنا بمقتضى فعلنا الذميم لأذاقنا من بأسه الأليم ، لكن رحمة الرحمن الرحيم ، غلبت عذابه الأليم .

أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام : ياموسى خاطب المذنبين باللطف واللين ، وادعهم إلىّ بالقول الجميل ، ورغبهم فى النعيم المقيم ، ولا تغلظ عليهم ، فلو شئت أن أعجل عقوبتهم لما أمهلتهم طرفة عين ، وأعلمهم أنه من تاب إلىّ قبلته ، ومن تمادى أمهلته ، ومن عصانى عذبته . ياموسى من ذا الذى قصدنى صادقًا فخيبته ، أو لجأ إلىّ فأسلمته ، أو سألنى

فمنعته ، أو رجع إلىّ فطردته ، أو تاب إلىّ وما قبلته ، أو تضرع إلىّ وما رحته ؟ اهـ .

ولما أنزل الله تعالى : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصيبَةٍ فَبِمَا كَسَبتْ أَيْدِيكم وَيَعْفُو عَنْ كَثِير)[1] .

قال سيدنا على كرم الله وجهه : قال رسول الله ﷺ :

« يَاعَلِيُّ مَنْ آخَذَهُ الله بِذَنْبِهِ فى الدُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ عَلَيْهِ فى الآخِرَةِ ، وَمَنْ عَفَا عَنْهُ فى الدُّنْيَا فَهُوَ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يُعَاقِبَهُ فى الآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَهُ فى الدُّنْيَا فَهُوَ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يَفْضَحَهُ فى الآخِرَةِ » .

قال على : فكانت عندى خيرًا من الدنيا وما فيها ، وأنشدوا :

سُبْحَانَ مَنْ أَبْدَعَ الأَشْيَا وَقَدَّرَهَا
وَمَنْ يَجُودُ عَلَى العَاصِى وَيَسْتُرُه
يُخْفى الْقَبِيح وَيُبْدى كلَّ صَالحَةٍ
وَيغْمُرُ الْعَبْدَ إِحْسَانًا وَيَشْكُرُهُ

قرب الحق من العبد

ولما كان اللطف يقتضى التهذيب ، والرحمة تقتضى التقريب ، تعجب الشيخ من شدة قرب الحق للعبد مع شدة بعد العبد عنه ، فقال فى المناجاة التاسعة :

[**إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك ، وما أرأفك بى ، فما الذى يحجبنى عنك**] .

قلت : قرب الحق من العبد قرب رحمة واجتباء ، وتقريب واصطفاء ، هذا فى حق الخواص ، وفى حق العوام هو قرب إحاطة وقدرة ، وعلم ومشيئته وتصريف

---

(١) الشورى : ٣٠ .

وقهرية ، والمراد هنا هو الأول ، فإن بعد العبد من ربه إنما هو بسوء أدبه ، وإلا فالحق تعالى قريب من كل شيء ، محيط بكل شيء ، ليس شيء أقرب إليه من شيء ، ولا شيء أبعد عليه من شيء ، وما بعد العبد من ربه إلا وَهْمُهِ وسوء فعله ، ولذلك قال الشيخ تواضعًا وأدبًا : إلهى ما أقربك منى بلطفك ورأفتك وعلمك وإحاطتك ، وما أبعدنى عنك بوهمى وسوء أدبى ، أو ما أقربك منى بأوصاف الربوبية ، وما أبعدنى عنك بأوصاف العبودية ، فأوصاف الربوبية رفيعة القدر عظيمة الشأن ، وأوصاف العبودية خسيسة القدر دنيئة المقدار ، فلا مناسبة بينهما فى القدر مع تلازمهما فى المحل ، بتحقيق الوحدة فيهما ، متلازمان فى القيام ، متضادان فى الأحكام ، والرأفة شدة الرحمة والعطف ، وذلك يقتضى شدة القرب والوصال ، وينفى وجود السوية والانفصال وهو الحجاب ، ولذلك تعجب الشيخ من وجود الحجاب بينه وبين مولاه مع شدة رحمته له وحباه ، إذ من تعطف عليك وآواك لا يمكن أن تلتفت عنه إلى سواه .

وفى الحكمة ، مكتوب : ياعبدى قد أسجدت لك الكون بما فيه الملك وأملاكه ، والملكوت وأملاكه ، فأنت أنا بما أيدتك وأنا أنت بما قلدتك ، فعش للأبد ، فمقامك لا يزاحمك فيه أحد .

ياعبدى خرقت لك الحجاب ، وفتحت لك الباب ، وأظهرت لك الأمر العجاب ، فأبلغ قومك اللباب ، ولو قالوا ساحر أو كذاب ، فأنا قد وهبتك الأخلاق فدعهم يقولون : (إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلَاق)[1] .

ياعبدى قد جعلتك تقول للشيء كن فيكون ، وما عليك إن قالوا ساحر أو مجنون أنت تشرب من رحيق الكوثر ، وهم يقولون :

(إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ)[2] .

عرجت بسرك إلى السماء ، وعلمتك خصائص الأسماء ، فأنت أمين خزائن التحقيق الدالّ لجميع الخلق على الطريق .

ياعبدى من طعن فى الوزير وسفه أمره ، فقد ردّ أمر الأمير وجهل قدره :

---

(١) ص : ٧ .

(٢) المدثر : ٢٤ .

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله)[1] اهـ .

- فالله تعالى بجوده وفضله إذا اصطفى عبدًا من عباده قرّبه بفضله ، واجتباه لحضرة قدسه ، وصفّاه من كثائف طبعه ، وحمى شخصه من رعونات نفسه ، فيصير من أهل قربه ، قد ارتفع الحجاب عن عين قلبه ، فزجت روحه فى بحار الأحدية ، وغاب سره فى سبحات الألوهية ، فإن كان ممن أريد الاقتداء به رد إلى شهود سر وجوده ، وقد كحلت عين قلبه بسر الحقيقة ، وكسيت ذاته وجودًا معارًا عليها ، وهو وجود الحق المفاض على جميع الممكنات ، فيرى ذاته المتوهمة : (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ الله عِنْدَهُ)[2] .

هنالك يصير العبد بالله ولله ، أمره بأمر الله حيث لم يبق فيه شائبة لسواه ، ولا شىء يحجبه عن الله ، فهذا الذى أحبه مولاه ، واصطفاه لحضرة قدسه ، واجتباه لمناجاته وأنسه ، فكان سمعه وبصره وناصره وحافظه فى متقلبه ومثواه ، هنالك يصير عارفًا به فى كل حال ، وخصوصًا عند اختلاف الأحوال ، كما أشار إلى ذلك فى المناجاة العاشرة فقال :

[إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلىّ فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء] .

قلت : إنما اختلفت آثار القدرة لتعرف عظمة القادر ، واختلافها يكون فى الأجسام كالعلويات والسفليات ، والجمادات والمائعات ، والنورانيات والظلمانيات ، والمائيات والناريات ، وكاختلافها فى الحيوانات ، كأجناس بنى آدم والأنعام والبهائم ، والطيور والسباع والوحوش والحشرات ، وباختلافها فى الأعراض كالبياض والسواد والحمرة والصفرة والزرقة والشهوبة ، وغير ذلك من الألوان لتعرف من ذلك سعة قدرته وعلمه وعظمة ذاته المقدسة ، وإنما تنقلات أطوارها من شباب وكهولة وشيخوخة ، ومن مرض وصحة ، وفقر وغنى ، وعز وذل ، وسلب وردّ ، ومنع وعطاء ، وقبض وبسط ، وجلال وجمال ،

---

(١) النساء : ٨٠ .

(٢) النور : ٣٩ .

وحياة وموت ، إلى غير ذلك لتعرفه تعالى فى كل حالة من هذه الأطوار ، وعند اختلاف أجناس هذه الآثار ، حتى لا تجهله فى شىء منها ، فإن الحق تعالىٰ قد تعرف لعباده فى أجناس مصنوعاته ، وفى اختلاف أحوال قدرته ، جهله من جهله وعرفه من عرفه ، فلا يسمى الإنسان عارفًا حتى يعرف الله فى الأشياء كلها ، مع اختلاف آثارها وتنقلات أطوارها . فيعرفه فى الذل كما يعرفه فى العز ، ويعرفه فى السلب كما يعرفه فى العطاء ، ويعرفه فى المرض كما يعرفه فى الصحة ، ويعرفه فى الجلال كما يعرفه فى الجمال ، إلى غير ذلك مما تقدم ، ويتلوّن مع كل لون ويتطور مع كل طور ، فالعارف هو الذى يتطور بجميع الأطوار ليقضى جميع الأطوار ، والتلون مع الأشياء هو الأدب معها ، والخضوع مع الحق فيها .

وأما من كان يعرف فى الجمال دون الجلال ، وفى العطاء دون المنع ، وفى العز دون الذل ، وفى الصحة دون المرض ، أو فى العافية دون المحنة ، أو فى الغنى دون الفاقة ، أو فى الرخاء دون الشدة ، فإنه كذاب . وانظر إلى قول القائل :

* حَبِيبِى وَمحْبوبِى عَلَى كلِّ حَالَةٍ *

وما أقبح الإنسان يدعى الخصوصية والمعرفة ونفى السِّوى : فإذا تعرّف له الحق تعالى باسمه الجليل أنكره وهرب منه ، وهذه عادة الله تعالى فى عباده ، كل من ادعى خصوصية أو قوة اختبره فى الحين :

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذَابًا أَلِيما)[1] .

فيفتضح المدعون ، ويثبت الصادقون . وقد ذاق الشيخ رضى اللّه عنه هذا المعنى بعد أن كان يعرف فى البعض وينكر فى البعض ، فلما تحقق علم أن اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار ، إنما سرها ليعرف الحق بها فقال : إلهى قد علمت : أى تيقنت باختلاف الآثار : أى آثار القدرة وتنقلات الأطوار : أى الأعراض والأحوال أن مرادك منى أن تتعرف إلىّ فى كل شىء من اختلافات أجناس القدرة وتنقلات أطوارها ، حتى لا أجهلك فى شىء منها .

قال فى التنوير : كل حالةٌ زائلة لا محالة ، لأن مراد الحق أن ينقل عبده فى

---

(١) الأحزاب : ٨ .

الأطوار ويخالف عليه الآثار ، حتى يتعرف إليه فى كل حالة خاصة بتعرف خاص ، ومن أراد حالة واحدة لم يرد الكمال اهـ .

فالله تعالى إنما أراد من عباده معرفته ، قال تعالى :

(وَمَاخَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)[1] .

قال ابن عباس : أى ليعرفون ، ومعرفته إنما تكون بتخالف الآثار ، وتنقلات الأطوار . وذكره غيره فى تفسير قوله تعالى :

(وَلِمَنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ)[2] .

أن إحدى الجنتين معرفة الله وهى جنة المعارف ، والأخرى جنة الزخارف ، ومن دخل المعارف لم يشتق إلى شىء سواها .

وقال مالك بن دينار : خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شىء فيها . قيل : وماذاك ؟ قال : معرفة الله تعالى .

وقيل إنه وجد حجرٌ مكتوب بقلم القدرة : من أحسن كل شىء ولم يعرف الله لم يحسن شيئًا حتى يعرف الله ، فإذا عرف الله فقد أحسن كل شىء ولم يغب عنه شىء اهـ . ويُكْفَى من عرف اللهَ الراحةَ من كد الرزق ، وتعب الحرص ، وتشويش البال منه ، وتعلق الوهم به ، فإنه لم يُؤتَ أكثر الخلق إلا من الاهتمام به ، ولو قَنِع العبد لاستغنى الغنى الذى لا فقر بعده والتوكل على الحى الذى لا يموت هو الغِنَى الأكبر ، الذى لا يلحقه فقر أبدًا .

قال الفضيل رضى الله عنه : لا ينبغى للعبد أن يثق بعافية ولا بغنى ولا بحالة تسره غير الله ، وبينما العبد معافًى تراه مبتلًى ، وبينما العبد غنيًّا تراه فقيرًا ، وبينما العبد ضاحكاً تراه باكياً ، وبينما العبد مسرورًا تراه حزينًا ، وبينما العبد حيًّا وإذا به ميت ، تعس من وثق بغير الله أو ركن لشىء سوى الله انتهى .

حكى أن رجلا ضاق حاله من أجل المعيشة وطال به الكد والتعب ، فخرج هائمًا على وجهه ودخل الصحراء ، فوجد قصرًا دارسًا خربًا قد كشف عنه الريح

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) الرحمن : ٤٦ .

الرمل ، وإذا بكوخ من الرخام فى حائط ذلك القصر وفيه مكتوب هذه الحكمة :

لَمَّا رَأَيْتُكَ جَالِسًا مُسْتَقْبِلا ... أَيْقَنْتُ أَنَّكَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ
مَالاَ يُقَدَّرُ لاَ يَكُونُ بِحِيلَةٍ ... أَبَدًا ، وَمَا هُو كَائِن سَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كائنٌ فى وَقْتِهِ ... وَأَخُو الجَهَالَةِ مُتْعَبٌ مَحْزُونُ
يَجْرِى الحَرِيصُ وَلا يَنَالُ بِحِرْصِهِ ... شَيْئًا وَيَحْظَى عَاجِزٌ وَمَهِينُ
فَدَعِ الهُمُومَ تَعَرَّ مِنْ أَثْوابِهَا ... إِنْ كانَ عِنْدَكَ بِالْقَضَاءِ يَقِينُ
هَوِّنْ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا ... فَأَخُو الحَقِيقَةِ شَأْنه التَّهْوِينُ
طَرَحَ الأَذَى عَنْ نَفْسِهِ فى رِزْقِهِ ... لمـا تَيَقَّنَ أَنَّـهُ مَضْمُـونُ

ومن نظر إلى سعة كرم الله وبره ، ثم نظر إلى عجز نفسه وفقره ، طرح أحمال الهموم عن ظهره ، واكتفى بعلم مولاه ونظره ، كما أشار إلى ذلك فى المناجاة الحادية عشرة :

[**إلهى كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك ، وكلما أيأستنى أوصافى أطمعتنى مننك**] .

قلت : العبد إذا نظر أوصاف نفسه اللئيمة وأفعالها الذميمة ، استحيا من الله أن يرفع إليه حاجة يطلبها ، وخرس لسانه عن النطق بها ، لأنه يرى من خساسة نفسه ولآمتها ما لا تستحق بذلك إلا العقوبة والطرد ، فإذا نظر إلى سعة كرم الله وجوده وإحسانه وبره ، انطلق لسانه بالسؤال ، وطمع فيما له من سعة العطاء والنوال ، وقد تقدم قوله : إن أردت أن ينفتح لك باب الرجاء فانظر ما منه إليك . وإن أردت أن ينفتح لك باب الحزن فانظر ما منك إليه . ولا شك أن من نظر إلى نفسه بعين الإنصاف لم يجدها أهلا لغير العقوبة ، إما من جهة الغفلة والتقصير ، وإما من قلة الوفاء بالشكر والحمد ، ولهذا وردت فى بعض الأدعية . اللهم افعل بنا ما أنت له أهل ولا تفعل بنا ما نحن أهله .

وقال بعض أهل التشديد من العباد : لا ينبغى للعبد أن يرى نفسه إلا شبه نجس ، إن جلس مع الداعين لم يرهم إلا منعوا الإجابة من سببه ، ولو سجد على الجمر لم ير عمله أهلا للقبول ، ولو كانت نفسه فى غاية التزكية لم يرها أهلا

لمدح ولا لثناء ، ومتى ما تمسح الناس بثيابه تبركا فإنما يرى نفسه كالبكر المزفوفة لبعلها وهى مفتضة بفجور ، كلما طافوا بها وعظموا شأنها زاد حزنها من خوف الفضيحة .

قلت : كل من تحقق زواله عن نفسه وبقاؤه بربه ، فلا حرج عليه فى ثنائه ومدحه ، إذ ليس هو الممدوح ، وإنما الممدوح من فضله عليك ممنوح ، وكل من مدّ يده للتقبيل ، ولم يرها يد الجليل كان القطع فى حقها من القليل :

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ)[1] .

ولا تكون يده يد الجليل حتى تتحقق خلافته فى الأرض ، ولا تتحقق الخلافة حتى يستولى على الوجود بأسره من عرشه إلى فرشه ، ويصير فى قلبه كحلقة فى الأرض ، فإذا صار هكذا كان خليفة الله فى أرضه ويده يد الملك ، فكل من بايعه بايع الله :

(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ، (وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[2] وأنشدوا فى مثله :

قَدِ اسْتَقَامَ عَلَى الْمِنْهَاجِ يَسْلُكُهُ ... وَلَمْ يَزِغْ حَائِداً مِنْهُ وَلا عَدَلاَ
مَنْ حَالُهُ يُعْمِرُ الدُّنْيَا بِظَاهِرِهِ ... وَقَلْبُهُ فى أَعَالِى الْخُلْدِ قَدْ نَزَلاَ
وَأَبْصَرَ الْأَمْرَ يَجْرِى فى مَسَالِكِهِ ... مِنْ أَوَّلِ النَّشْءِ حَتَّى شَبَّ وَاكْتَهَلاَ
وَنَاطَقَتْهُ الْبَرَايا وَهْىَ صَامِتَةٌ ... وَمَيَّزَ الضِّدَّ وَالْأَرْوَاحَ وَالْعِلَلاَ
وَأَظْهَرَ الصُّورَةَ الْعُلْيَا بِصُورَتِهَا الْـ ... ـحُسْنَى وَمِنْ قَبْلُ كَانَتْ أَلْبِسَتْ ظُلَلاَ

قال بعضهم : اشتريت جارية سوداء فلما جن الليل وأردت أن أنام ، قالت : يا مولاى أما تستحى ، مولاك لا ينام وأنت تنام ؟ ثم قامت تصلى فانتبهت وهى ساجدة فسمعتها تقول فى سجودها : بحق حبك لى لا تعذبنى ، فقلت لها غلطت ، قولى بحبى إياك لا تعذبنى ، فلما سلمت قالت يا مولاى ما غلطت بل

---

(١) الفتح : ١٠ .

(٢) الحديد : ٢١ .

أصبت ، ولولا محبته لى ما أنامك وأقامنى ، فقلت اذهبى فأنت حرة لوجه الله ، قالت : هذا العتق الأصغر وبقى العتق الأكبر ا هـ .

مناجاة بعض الواهين

وكان بعض الواهين يقول فى بعض مناجاته : إلهى لو أردت إهانتى ما وفقتنى لطاعتك ؛ ولو أردت فضيحتى ما سترتنى عند مخالفتك . إلهى لولا ذنوبى ما خفت العذاب ، ولولا كرمك ما رجوت الثواب ا هـ .

فسر الشيخ الأوصاف التى آيسته إن نظر إليها من منة الله ورحمته فقال فى المناجاة الثانية عشرة :

[إلهى من كانت محاسنه مساوى فكيف لا تكون مساويه مساوى ؟ ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى] .

قلت : محاسن الإنسان لا تخلو من خلل ونقصان ، ولو لم يكن إلا نسبتها لنفسه وفعله ورؤيتها من قوته وحوله ، لكان كافياً فى خللها ونقصها ، فتنقلب مساوى بعد أن كانت فى الصورة محاسن ، وإذا كانت محاسنه مساوى فكيف لا تكون مساويه مساوى ؟ وكذلك حقائق العبد ؛ وهى ما تحقق به من المقامات والمنازلات ، وأذواق العارفين ، ومواجيد المحبين ، لا تخلو من شوائب الدعوى ؛ ومسارقة الهوى ، لولا مسامحة المولى . فإذا كانت حقائقه التى تحقق بها وذاقها لا تخلو من شوائب الدعوى . فإذا نسبها لنفسه كانت كلها دعاوى فكيف لا تكون دعاويه الفارغة دعاوى ، فإذا علم العبد هذا استحيا من مولاه أن ينسب لنفسه شيئاً من المحاسن أو يثبت لها نوعاً من الحقائق ، فربما يفضح على رءوس الخلائق ، ويكفى المريب وجدان السلامة .

قال ذو النون رضى الله عنه : الحياء من الله يقطع العبارة ، ويدقق الإشارة .

وقال السرى السقطى رضى الله عنه : الحياء من الله يطرق القلب ، فإذا وجد فيه شيئاً من حب الدنيا رحل .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : يقول الله تعالى : عبدى إنك ما

استحييت متى أنسى الناس عيوبك ، وأنسى بقاع الأرض ذنوبك ، وأمحو من أم الكتاب زلاتك ، ولا أناقشك الحساب يوم القيام ا هـ .

وقد فسر النبى ﷺ الحياء فقال :

« الْحَيَاءُ مِنَ اللهِ : أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَذْكُرَ الْقَبْرَ وَالْبِلَى ، وَتَتْرُكَ أَفْضَلَ زِينَةِ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَل ذٰلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ » ا هـ .

ووجد رجل نائم فى موضع مخوف كثير السباع والآفات ودابته حوله ترعى ، فقيل له : إنك فى موضع مخوف ، فقال : إنا نستحيى أن نخاف غير الله . ثم رجع لنومه .

وفى الحكمة : من استحيا من الله وهو مطيع استحيا الله منه وهو مذنب .

وسئل الجنيد عن الحياء ما هو ؟ فقال : شىء يتولد بين رؤية النعماء ورؤية التقصير .

علامات الشقاوة

وقال الفضيل : علامة الشقاوة خمسة : قلة الحياء ، وقسوة القلب ، وجمود العين ، والرغبة فى الدنيا ، وطول الأمل ا هـ .

ثم على تقدير سلامة محاسنه من المساوى ، وتصفية حقائقه من الدعاوى ، فأمر المشيئة مبهم والسابقة والخاتمة غير معلوم أمرهما فلا يدرى ما يفعل الله به كما أبان ذلك فى المناجاة الثالثة عشرة بقوله :

[إلهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة ، لم يتركا لذى حال حالا ، ولا لذى مقال مقالا] .

قلت : لا شك أن حكم الحق نافذ فى خلقه لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[1] .

وهذا هو الذى حرّك قلوب العارفين فلم يطمئنوا بحال ، ولم يعتمدوا على عمل ولا مقال ، بل صاروا مضطرين إلى الله فى كل حال ، لأنهم قد علموا أن حكم الله نافذ كلمح البصر أو هو أقرب ، ومشيئته قاهرة لا يصرفها عن إنفاذ مرادها صارف ، ولا تردّها همة ولىّ ولا عارف ، ففى لحظة واحدة يقرّب البعيد ويُبْعِد القريب ، ويرفع الوضيع ، ويضع الرفيع ، ويعز الذليل ، ويذل العزيز ، ويغنى الفقير ، ويفقر الغنى ، ويبسط المقبوض ، ويقبض المبسوط ، ويمرض الصحيح ، ويصحح المريض ، فكيف يصح لعاقل أن يركن إلى حاله ومقامه ، أو يعتمد على علمه وأعماله ، أو يغتر ببسط لسانه ومقاله ، والله تعالى يقول :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)[2] .

قال بعضهم : من أين للعبد ثبوت حال أو مقال وهو عين المقال فى الحال ؟ ذرة جَلّة جالت على معناها فلم تبلغ منتهاها ، فوالله ما بلغ العبد شفعية معناه فأنّى له بوترية معناه ، جوهرة رامت فلاحت وأومضت فغمضت ، وسكنت فتمكنت ، فبرزت من قعر بحر الغيب فغار منها القدر ، فأجناها فى سواد عينها ، خيفة أن تنال أو تسم أو تعرف ؛ فلا كيف لها ولا أين ولا رحيم ولا عين ولا وصل ولا بين ، ومعنى قوله : عين المقال فى الحال ، يعنى أن أمر العبد بين الكاف والنون ، فهو عين قول « كن » فى أسرع حال ، فالمراد بالمقال هو قول « كن » فيكون تصريف ذلك الأمر فى الحال ، وقوله ذرة جلة إلخ : الذرة النملة الصغيرة ، وجلة عظيمة ، أى ذرة صغيرة فى الحس عظيمة فى المعنى ، جالت بفكرها فى إدراك معناها فلم تبلغ منتهاها كناية عن عجائب صنعة البارى فى أصغر شىء ، فكيف بالإنسان ؟ ولذلك قال : فوالله ما بلغ العبد شفعية معناه ، وشفعية معنى العبد : هى بشريته الظاهرة ، لأنها محل العبودية التى هى شفع باعتبار الربوبية ، ووترية معناه : هى روحانيته ، لأنها واحدة ، وقوله جوهرة رامت : المراد بالجوهرة هنى الروح ، رامت : أى قصدت الظهور ،

---

(١) الأنبياء : ٢٣ .

(٢) الأنفال : ٢٤ .

فلاحت : أى ظهرت فى هذا القالب البشرى، وأومضت : أى أشرقت أنوارها على ذلك القالب ، فغمضت : أى استترت وانحجبت ، فلم يعلمها إلا من أوجدها ونفخها وسكنت فى قفصها فتمكنت فيه ، وقوله فبرزت من قعر بحر الغيب ، يشير إلى أصل بروزها من بحر الجبروت ، فلما برزت إلى عالم التكوين عالمة بأسرار الغيب وهى أسرار الملك غار منها القدر وخاف عليها أن تفشى أسرار الملك ، فأجناها : أى أجنى عليها فى سواد عينها ، فحجبها عن تلك الأسرار خيفة أن تنال تلك الأسرار ، أو تظهر أو تعرف ، فلا كيف للروح ولا مكان ولا رحم لها ، بل هى درة يتيمة ولا عين لها تعرف ، ولا وصل لها بشىء ، ولا قطع لها عن شىء ، جل ربنا أن يتصل به شىء أو يتصل هو بشىء ، والله أعلم ، وأنشدوا :

فَالْكُلُّ يَطْلُبُ نُعْمَى حَيْثُ ضَلَّ وَمَا ... يَحْظَى بِنُعْمى سِوَى فَرْدٍ بِأَفْرَادِ
مَهْلًا عَلَيْكَ وَعُدْ مِنْ حَيْثُ جِئْتَ وَسَلْ ... فِى الدَّارِئِينَ غَدًا عَنْ سَاكِنِ الْوَادِى
عَسَاكَ تَلقَى خَبِيرًا عَالِمًا بِهِمُ ... يُنْبِيكَ عَنْهُمْ وَلَمْ يُلْمِمْ بِمِيعَادِ

قال بعض الحكماء : تالله ما ظفر بسعدى إلا من تاه فى أرض التقديس ، وتنزه عن الخسيس والنفيس ، فأصبح جسمه وروحه العصا ونفسه فرعون ؛ فكلامه صمت وصمته كلام ، ولسان حاله يخاطب جميع الأنام ، فلو عرضت عليه الشهادة فى باب الحجرة والموت داخلها على حسن الختام لترك الشهادة واختار الموت على أكمل التمام ، عملا على اليقين دون الشك ، والله خير وأبقى . يا هذا ما أطيب عيش من وعى فأجاب : ما أعز قدر من لازم الباب ، ما أخس قدر من أبعد عن الجناب ، ما أبخس قيمة من له على الغفلات انكباب . إذا غلب الطبع فلا تنفع الحيلة ، ومن سبق له القضاء لم تنفعه الوسيلة ، فسبحان من يعطى ويمنع ، ويضر وينفع ، جذبت العناية سلمان الفارسى من أرض فارس ، ونودى بلال من بلاد الحبشة ، وأبو طالب على باب التحقيق ، وقد حرم التوفيق ، وقع الحكم ، ونفذ الأمر ، وسبقت المشيئة ، وجف القلم :

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) ا هـ[1] .

وكما أن حكمه النافذ يهدم الاعتماد على الأحوال ، كذلك عدله القاهر يهدم الاعتماد على الأعمال ، كما أبان ذلك فى المناجاة الرابعة عشرة حيث قال :

[إلهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها ، هدم اعتمادى عليها عدلك بل أقالنى منها فَضْلُك] .

قلت : لا ينبغى للعبد أن ينظر إلى شىء من طاعته وإن عظمت ، ولا أن يستحسن شيئاً من أحواله وإن حسنت ، فالناقد بصير ، والرقيب على الضمائر خبير ، فكم من طاعة تعظم فى عين صاحبها كأمثال الجبال لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، وكم من أحوال تصفو عند صاحبها وهى عند الله مدخولة ، وقد تقدم قوله : لا كبيرة إذا قابلك فضلهُ ، ولا صغيرة إذا واجهك عدلُه ؛ فمن قابله بفضله عادت كبائره صغائر ، ومن واجهه بعدله رجعت صغائره كبائر ؛ ولذلك قال هنا : كم من طاعة بنيتها : أى نميتها وكثّرتها هدم اعتمادى عليها عدلُك ، أى نظرى إلى عدلك ، فلما نظرت إلى عدلك تلاشت أعمالى واضمحلت أحوالى ، وكم من حالة شيدتها ورفعتها فلما نظرت إلى عدلك وشدة مناقشتك انهدمت وتلاشت ، بل أقالنى منها ، بأن زالت نسبتها عنى ، فضلك وهدايتك وتوفيقك ، فلم تبق لى طاعة ولا حال ، ورجع ذلك إلى الفاعل المختار الكبير المتعال .

فالواجب على العبد أن ينسلخ من علمه وعمله وحاله ونفسه وروحه وحوله وقوته ، ويبقى فقيراً بين يدى سيده .

(عَبْدًا مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ)[2] .

قال بعضهم : والله ما غاص فى بحر الفناء إلا من باع نفسه من الله :

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)[3] .

---

(١) الأنفال : ٦٣ .

(٢) النحل : ٧٥ .

(٣) التوبة : ١١١ .

كيف يخوض فى بحر الحقائق من لم يخلص علمه وعمله من الزيف وصيارفة الحق بالمحك المحمدى على الساحل ، يردون من لا يخلص ؟ وأين الإخلاص ؟ هذا لمن وصل إلى ساحل ذلك البحر ، فكيف بمن ينكره ولا يصدق به أو يسير إليه منحرفاً دون استقامة ؟ كما قيل :

لَيْسَ مَنْ بَاتَ قَرِيرًا عَيْنُهُ ... مِثْلَ مَنْ أَصْبَحَ قَفْرًا دَارِسَا
لَيْسَ مَنْ أُكْرِمَ بِالْوَصْلِ كَمَنْ ... ظَلَّ يَهْذِي بِلَعَلَّ وَعَسَى
لَيْسَ مَنْ أُلْبِسَ أَثْوَابَ التُّقَى ... مِثْلَ مَنْ أُلْبِسَ ثَوْباً دَنِسَا
لَيْسَ مَنْ سِيرَ بِهِ مِثْلَ الَّذِى ... بَاتَ يَرْعَى فِي الْحِمَى مُبْتَئِسَا
لَيْسَ مَنْ شَاهَدَ صُبْحاً وَاضِحاً ... مِثْلَ مَنْ شَاهَدَ لَيْلاً غَلِسَا
لَيْسَ مَنْ بُوِّئَ رَوْضَاتِ الْحِمَى ... مِثْلَ مَنْ أُسْكِنَ قَفْرًا يَابِسَا
لَيْسَ مَنْ أَشْبَهَ غُصْنًا يَانِعاً ... مِثْلَ مَنْ أَشْبَهَ عُودًا يَابِسَا

ثم إن عدم الاعتماد على العمل لا يقتضى ترك العمل ، بل يجب على العبد أن يداوم ، على العمل ولا يتكل عليه ، فإن لم يقدر على مداومته بالفعل فبالمحبة والعزم ، كما بين ذلك فى المناجاة الخامسة عشرة بقوله :

[إلهى إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلا جزماً فقد دامت محبة وعزماً] .

قلت : بطاعة العبد لربه يجب أن تكون فعلا ومحبة وعزماً فى كل لحظة ووقت ؛ فإن لم يقدر على ذلك فليعزم على البر والتقوى ، وينو فعل الخيرات ، فنية المؤمن خير من عمله :

(إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ)[1] .

أى يعطكم أفضل مما أخذ منكم فى مال أو عمل .

وقال بعضهم : الفعل الجزم هو وجود العمل والمحبة ، والعزم هو التوجه للعمل ، وكم من متوجه لم يلحق وكم من مجدّ لم يسبق ، لكن فى العزم ظهرت

---

(١) الأنفال : ٧٠ .

الحقائق ، وبه جاءت الشرائع ، وليس على العبد إلا القصد والجد والعزم ؛ وأما نفوذه فقد يقدّر وقد لا يقدر : (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)[1] .

والمراد بالعزم : القصد ، والنية : هي توجه القلب للأمر المطلوب ا هـ

واعلم أن متابعة العلم اختيارية ، ومتابعة الحال اضطرارية ، فما دام العبد معه بقية اختيار وجب عليه اتباع العلم وهو مقام السلوك ، فإن غلب الحال وجب اتباعه وهو مقام الجذب ، ومثل ذلك قضية الصدّيق حين أتى بماله كله فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام :

« مَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ ؟ فَقَالَ : تَرَكْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ » .

ولم يلتفت لقوله صلى الله عليه وسلم فى حال التشريع :

« لَأَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » .

ولما غلب الحال على العلم صار الحكم للحال ، فيا له من مقام ما أعز شأنه وأرفع قدره عند المحققين ، وأنشدوا :

وَحَاشَاهُمْ مِنْ قَادِحٍ فى طَرِيقِهِمِ ... وَمَطْلُوبُهُمْ أَسْنَى المَطَالِبِ كُلِّهَا
حَبَاهُمْ بِتَأْيِيدٍ وَعِزٍّ وَعِصْمَةٍ ... فَأَكْرِمْ بِأَوْصَافٍ لَهُمْ مَا أَجَلَّهَا

واعلم أن العازم على الخير فاعل ، والعازم على الوصول واصل ، وليس على العبد إلا الاجتهاد ، فإذا بذل مجهوده وأخلص مقصوده فهو والواصل سواء . وكان شيخ شيخنا يقول : من مات وهو فى الطريق أدركته الولاية بعد الموت على التحقيق ا هـ .

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكم فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ)[2] .

وفى الحديث : « مَنْ مَاتَ فى طَرِيقِ الْحَجِّ فَهُو حَاجٌّ ، وَمَنْ مَاتَ فى

---

(١) يوسف : ٢١ .

(٢) الأنفال : ٧٥ .

طَرِيقِ الْجِهَادِ فَهُوَ مُجَاهِدٌ ، قال تعالى : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ)[1] وَمَنْ مَاتَ فى طَرِيقِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » .

وفى الحديث : « مَنْ مَاتَ وهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ » أى النافع « لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا دَرَجَةٌ واحِدَةٌ ، وَمَنْ تَوَجَّهَ لِأَمْرٍ وَلَمْ يُدْرِكْهُ فَكَأَنَّما أَدْرَكَهُ » .

ولابد فى مبادئ الأمور من الصبر والتحمل للمشاق وقمع النفس عن الهوى والراحة ، ولذلك سمى الجهاد جهاداً ، والقاصد يطلب الباب بعد أن كان يطلب سواء السبيل ، فإذا وصل الباب أنتج له طلب الدخول ، فإذا دخل أنتج له الوصول ، فإذا وصل :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[2] وأنشدوا :

مَنْ فَاتَهُ طَلَبُ الْوُصُولِ وَنَيْلُهُ ... مِنْهُ فَقُلْ ماذا الَّذِى هُوَ يَطْلُبُ

حَسْبُ الْمُحِبِّ فَنَاؤُهُ عَمَّا سِوَى ... مَحْبُوبِهِ إِنْ حَاضِرٌ وَمُغَيَّبُ

ثم إن عزم العبد على الطاعة ليس هو بيده حقيقة لكنه مأمور به شرعاً ، وهو الذى نبه عليه فى المناجاة السادسة عشرة بقوله :

[إلهى كيف أعزم وأنت القاهر ؟ أم كيف لا أعزم وأنت الآمر ؟].

قلت : محبة الطاعة والعزم عليها والعمل بها ليس هو من قدرة العبد وفعله فى الحقيقة وهو مأمور به من جهة الشريعة لتقوم الحجة وتظهر المحجة . (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)[3] ، (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)[4] .

---

(١) النساء : ١٠٠ .
(٢) السجدة : ١٧ .
(٣) الأنعام : ١٤٩ .
(٤) النساء : ٤٠ .

الجمع بين الحقيقة والشريعة

فمن نظر إلى الباطن وجد العبد مجبوراً ، ومن نظر إلى الظاهر وجده غير معذور ، فالواجب على الإنسان ، وخصوصًا العارف أن ينظر بعين الحقيقة لبواطن الأمور فيعذر الخلق ، لأنهم مجبورون فى قوالب مختارين ، وينظر بعين الشريعة لظواهر الأمور فينفذ الحقوق ويقيم الحدود سترًا لسر الربوبية وإظهارًا لوظائف العبودية ، لكن ذلك بلطف ولين ، قلبه يحن عليه وظاهره يغلظ عليه ، كالعبد يؤدب ابن سيده ، وهذا مضمن هذه المناجاة : أى كيف أعزم على الطاعة وأعقد عليها وأنت القاهر لى ، فلا طاقة لى على فعلها وأنت تقهرنى عنها وهذه هى الحقيقة ، وكيف لا أعزم عليها وأنت الآمر لى بها ، فإن لم أعزم عليها عذبتنى وهذه هى الشريعة ، فالواجب أن أعزم وننظر ما تفعل ، فإن وفقتنى للعمل فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ، وإن لم توفقنى فأنت أهل العفو والمعذرة ، وأنت الفاعل المختار ، فالأمر أمرك والعبيد عبيدك .

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً)[1] ، (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً) [2] .

قال الشطيبى رحمه الله : أراد المؤلف أن يدل المريدين على مقام الجمع بين الحقيقة والشريعة ، لأن عزم العبد مطلوب منه شريعة ، ونتيجة مسلوبة منه فى الحقيقة ، ولا يثبت بينهما إلا من ثبّته الله ، فلهذا تعجب الشيخ رحمه الله من تضاد الطالبين ، لأنه خارج عن مقدور البشر ، لكن لما كان الإنسان نسخة الوجود وأشرف كل موجود ، أودع فيه من أسرار حكمته ما يؤلف بين الضدين ، ويجمع بين الكفؤين . قال تعالى :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ)[3] .

---

(١) يونس : ٩٩ .
(٢) هود : ١١٨ .
(٣) الرحمن : ١٩ ، ٢٠ .

فمن ظهر أثر البرزخية على جوارحه عمل أعمال الدنيا وأعمال الآخرة . ومن ظهر أثر البرزخية على قلبه جمع بين أعمال الآخرة ، ومشاهدة الحضرة ، وأشرق نورها عليه . ومن ظهر أثر البرزخية على روحه جمع بين المشاهدة والمحبة .

ثم قال : واعلم أن الأجسام تموت وتبعث وتنشر ، وكذلك النفوس والأرواح ، فأما موت الأجسام فهو عند الخروج من الدنيا وتبدل القصور بالقبور . وأما موت النفوس فهى عند الخروج من الحظوظ وتبدّلها بالحقوق . وأما موت الأرواح فهو رجوعها لعالمها النورانى صفحة الملأ الأعلى على الهاجس النفسانى ، فإذا لم يبق للنفس نظر إلا لله ولا للروح تعلق إلا بالله ، وفنى من لم يكن ؛ وبقى من لم يزل ، انجمع الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر ، وتعينت المشاهدة من كل وجهة ، وخوطب من سوى الحق بقوله تعالى :

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)[1] .

وحينئذ يهتف هاتف التجريد من مقام التفريد : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ)[2] .

فلم يجبه من عوالم البشرية والصور الأثرية مجيب ، فيجيب نفسه بنفسه .

(لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[2] اهـ .

والمراد منه مختصراً ، وإنما أمر الله تعالى بالطاعة والعزم عليها ، لأنها سبب الوصول إليه حسبما جعلها الحق تعالى حكمة وشريعة ، كما بين ذلك فى المناجاة السابعة عشرة بقوله :

[إلهى ترددى فى الآثار يوجب بعد المزار ؛ فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك] .

قلت : التردد فى الآثار هو التردد بين إثباته ونفيه وهى حالة المستشرفين ، فإذا أثبته مستقلا كان فى حالة البعد ، وإذا نفاه كان فى حالة الجمع ، فطلب الجمع على الدوام بحيث لا يبقى له تردد فى نفيه وإثباته بالله وهو مقام البقاء ، فإثبات الأثر بالنفس على الدوام هو بعد على الدوام وهو مقام أهل الحجاب من

---

(١) القصص : ٨٨ .

(٢) غافر : ١٦ .

العوام ، ونفيه على الدوام هو مقام أهل الجمع من أهل الفناء والجذب ، ونفيه ثم إثباته بالله هو مقام أهل البقاء ، قياماً بوظائف الحكمة والقدرة ، وجمعاً بين الحقيقة والشريعة ، وهذه المناجاة إنما تليق بأهل الاستشراف . ولو أراد الشيخ رضى الله عنه أن ينبه على مناجاة السائرين والواصلين والمتمكنين لقال بعد هذه المناجاة التى هى للسائرين : إلهى تنزهى فى الأنوار يوجب قرب المسار ، فاجمعنى إليك بفكرة توصلنى إليك ، وهذه مناجاة الواصلين قبل الرسوخ والتمكين ، ثم يقول : إلهى تنزهى فى الأسرار يوجب وصل المسار فاجمعنى إليك بنظرة تقيمنى بين يديك ، وهذا غاية الجمع ، وهو تمكن النظرة ، ودوام شهود الحضرة ، ولا يذوق هذا إلا من سبقت له الخدمة ، وتداركته عناية الجذبة فأصبح من الفائزين ، ولمحبوبه من الواصلين .

وقد قيل : إذا أبغض الله عبداً - والعياذ بالله - طرده عن بابه ، وشغله عنه بمكابدة رفع حجابه ، وليس له طاقة على ذلك ما لم يكن الله فى عونه ، وهو معنى « لا حول ولا قوة إلا بالله » لكن العنّين لا يدرك لذة الجماع ، والأعمى لا يدرك رحب الساحات والبقاع .

قيل : إن بعض المجموعين على الله أراد التستر عن مقامه ، فكان لا يسأل عن شىء إلا قال هو ، فقيل له لعلك تعنى الله فسقط ميتاً ، ويسمى عندهم جمع الجمع ، هو خاص بخواص الخواص ، وقيل بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقيل بالرسل ، وقيل بنبينا (محمد) صلى الله عليه وسلم ، ولا يمكن الوصول إلى هذا إلا برفع الهمة عن الكونين ، وخلع النعلين من الدارين .

قال بعضهم : عرضت علىّ الدنيا بزخرفها وزينتها فأعرضت عنها ، فعرضت علىّ الجنان بقصورها وحورها وحللها فأعرضت عنها ، فقيل لى : لو وقفت مع الدنيا لحجبناك عن الآخرة ، ولو التفت إلى الآخرة لحجبناك عنا ، فارض بنا عما سوانا ، وقسطك يأتيك من الدنيا والآخرة .

وقال آخر : رأيت رجلا وضع سجادة على الماء ومضت به ، فقلت فى نفسى فاز الرجل وأنا لم أصلح للدنيا ولا للآخرة ، فسمعت هاتفاً يقول : من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا .

قال الشطيبى : ثم إن التردد فى الآثار ، والنظر إليه إنما هو لأهل الدليل

المفترقين للنظر إليه ، ليستدلوا به على صانعه . وأما أهل الشهود فهم أغنياء عن الأثر ، لأن ظهور الحق عندهم أظهر من غيره ، بل لا وجود لغيره أصلا ، وإلى هذا أشار فى المناجاة الثامنة عشرة بقوله :

[إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى يكون الآثار هى التى توصل إليك] .

قلت : قد تعجب الشيخ رضى الله عنه ممن يستدل على الله بنوره بعد كمال ظهوره ، فكيف يفتقر النور بعد ظهوره إلى دليل يدل على وجوده ؟ وكيف يحتاج إلى دليل من هو أظهر من كل دليل ، أم كيف يفتقر إلى دليل من نصب الدليل ، ولله در القائل :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِى عَلَيْكَ شَهَادَةً وَأَنْتَ الذِى أَشْهَدْتَهُ كُلَّ شَاهِدِ

وقال الشيخ أبو الحسن رضى عنه : كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف ؟ أم كيف يعرف بشىء من سبق وجوده كل شىء ؟ اهـ .

قلت : فيا عجباً كيف تكون الفروع أظهر من الأصول ، ولولا الأصول لم يكن للفروع حصول ؟ أم كيف تكون السواقى والأنهار الجارية من البحار أظهر من تلك البحار ؟ وما فاضت أنوار الملكوت إلا من بحار الجبروت ؟ لكن البصيرة العمياء لا ترى الشمس فى أفق السماء . ومن أين ترى الشمس مقلة عمياء ؟

قال مريد لشيخه : يا أستاذ أين الله ؟ فقال له أسحقك الله : أتطلب مع العين أين ؟

الجنيد يصف رؤية الله

قال رجل للجنيد رضى الله عنه : يا أبا القاسم هل رأيتم ربكم حين عبدتموه ، أم اعتقدتم الوصول إليه بقلوبكم ؟ فقال الجنيد رضى الله عنه : أيها السائل ما كنا لنعبد ربًّا لا نراه ، وما كنا بالذى تراه أعيننا فنشبهه ، وما كنا

بالذى نجهله فلا ننزهه ، فقال له الرجل فكيف رأيتموه ؟ فقال له : الكيفية معلومة فى حق البشر ، مجهولة فى حق الرب ، لن تراه الأبصار فى هذه الدار بمشاهدة العيان ، ولكن تعرفه القلوب بحقائق الإيمان ، ثم تترقى من المعرفة إلى الرؤية بمشاهدة نور الامتنان .

فهو سبحانه مرئى بالحقائق القدسية ، منزه عن الصفات الحديثة ، مقدس بجماله ، منعوت بكماله ، متفضل على القلوب بمواهبه ونواله ، معروف بعدله ، منعوت بفضله ا هـ . فلما سمع الرجل مقالة الجنيد قام وقبل يده وتاب ، ولازمه حتى ظهر عليه الخير ، ولزم صحبته حتى مات رحمة الله عليهما .

واعلم أن أهل الدليل يستدلون بالصنعة على الصانع ، وبالشاهد على الغائب . وأهل العيان صار الغيب عندهم شهادة ، والدليل عين المدلول .

فالقسم الأول أهل علم اليقين . والثانى أهل عين اليقين أو حق اليقين . القسم الأول عوام . والثانى خواص أو خواص الخواص .

قال الشيخ أبو الحسن : أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان ، قدسوا الحق فى ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه ، فهو معنى قول الشيخ هنا : إلهى كيف يستدل عليك بما ، أى بالكون الذى هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك على تقدير وجوده من الظهور ما ليس لك . متى غبت عن البصائر والعيان حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، وذلك الدليل لا قيام له إلا بك ، محال أن يظهر فى الوجود غير نورك . ومتى بعدت عن الأشياء التى قامت بك ؟ أى بقدرتك حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ لا مسافة بينك وبين خلقك ، ولا قطيعة تقطعهم عنك إلا وجود الوهم وقاهرية الحجاب ، أعاذنا الله منه بمنه وكرمه . وكيف تجوز عليه الغيبة وهو الرقيب القريب ، كما أبان ذلك فى المناجاة التاسعة عشرة بقوله :

[إلهى عميت عين لا تراك عليها رقيباً ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك نصيباً] .

قلت : الظاهر أن هذا إخبار بأن كل عين خلت من مراقبة الحق تعالى فهى عمياء ، وكل صفقة خلت من محبة الله فهى خاسرة ، ويكون العمى فى حقها

معنويًّا ، فكأنها حيث لم تراقب الله تعالى ولم تستحى منه عمياء ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)[١] وقال تعالى : (وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا)[٢] .

فمن لم يعتقد هذا فهو كافر ، ومن اعتقده ولم يستحى من الله فهو جاهل أعمى البصيرة وقد قالوا : إن الحياء جله من البصر ، ألا ترى أن الأعمى قليل الحياء ، فدل أن البصر الذى لم يراقب الله تعالى ولم يستحى منه ليس ببصر ، وإنما هو عمى . ويحتمل أن يريد بالعين عين البصيرة . قال بعضهم : إذا عصيت الله فاعصه بموضع لا يراك ، فمن لم يستحى من نظر الحق وبارز مولاه بأنواع المعاصى ، فقد عميت عين بصيرته .

وسئل بعضهم : بم يستعين العبد على حفظ بصره ؟ فقال بعلمه بأن رؤية الحق تسبق بصره ا هـ .

وفى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ إِيمانِ المَرْءِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَهَ حَيْثُ كانَ » .

والصفقة : هى ما يشترى جملة ، وكنى بها عن حظ العبد وقسمته الأزلية ، فمن كان حظه من الله المقت والبعد فصفقته خاسرة نسأل الله العافية .

كان بعض السادات يبكى ، فقيل له لم هذا البكاء ؟ فقال له : ليس بكائى من ذنوبى وعصيانى ، لأن ذلك من صفة نفسى ، وإنما بكائى على أن كانت أقساماً قسمت وحظوظاً أجريت وكان حظى منها البعد ا هـ .

وفى بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : يا عبدى أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محبًّا ، فمحبة الله لعبده تقريبه واجتباؤه لحضرته ، ومحبة العبد لله طاعته بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، والاستسلام لقهره ، فهذه أوائل المحبة وهى كسبية ، ونهايتها كشف الحجاب

---

(١) النساء : ١ .

(٢) يونس : ٦١ .

وفتح الباب ، والدخول مع الأحباب ، وهذه وهبية نتيجة الكسبية ، وإلى هذا المعنى أشارت رابعة العدوية فى شعرها حيث قالت :

أُحِبُّكَ حُبَّين حُبَّ الْهَوَى وحُبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَ
فَأَمَّا الذِى هُوَ حُبُّ الْهَوَى فَشُغْلِى بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِى أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِى الْحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فى ذَا وَلَاذَاكَ لِي وَلٰكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فى ذَا وَذَاكَ

فأشارت رضى الله عنها إلى أن محبة العبد لله على قسمين : قسم ناشئ عن شهود الإحسان ، وقسم ناشئ عن شهود الجمال .

فأما الأول الذى هو ناشئ عن شهود الإحسان ، فلا شك أن العبد إذا نظر إلى إحسان الله تعالى وإنعامه عليه بضروب النعم الحسية والمعنوية أحبه لا محالة ، لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ، وهذا هو المسمى بحب الهوى : أى الميل وهو مكتسب لأن العبد مغمور بإحسانات الله إليه وهو متمكن من النظر فيها ، فلا يزال يطالع نعمة بعد نعمة ومنة بعد منة ، وكل نعمة أعظم من التى قبلها ، فتعظم محبته لمولاه ، وبذلك يبلغ قصده ومناه .

وأما الثانى وهو الناشئ عن شهود الجمال ، فإن العبد إذا كشف الحجاب عن قلبه ، وزالت عنه الموانع والقواطع رأى جمال الحق وكماله ، وأشرقت أنوار الحضرة وسناها على قلبه ، والجمال محبوب بالطبع ، فانعقدت المحبة بينه وبين مولاه ، وإنما خصصت رابعة رضى الله عنها الحب الناشئ عن شهود الجمال بالأهلية دون الأول وإن كان أهلا للجميع ، لأن هذا منة الله لا كسب للعبد فيه ، والآخر فيه سبب وعمل العبد معلول ، وقولها : فشغلى بذكرك عمن سواك من باب التعبير بالمسبب عن السبب والأصل ؛ فثمرته شغلى بذكرك إلخ وقولها أيضاً : فكشفك لى الحجب حتى أراك من باب التعبير بالسبب عن المسبب عكس ما قبله ، والأصل فسببه ومنشؤه كشف الحجاب حتى رأيتك بعين قلبى . وقولها : فلا الحمد إلخ إخبار منها بأن الحبّين معاً منه وإليه فى الحقيقة لا كسب لها فى ذلك وإدراك التفاوت بين ما تؤثره شربة المحبة الناشئة عن

شهود الإحسان ، وما تؤثره شربة المحبة الناشئة عن شهود الجمال ، ونعوت الكمال ، وأن أثر الثانية أقوى من أثر الأولى بل لا نسبة بينهما ضرورى عند كل ذائق ا هـ . قاله الفاسى فى شرح الرائية .

فقول الشيخ رضى الله عنه : لم تجعل له من حبك نصيبًا ؛ يحتمل أن يكون من إضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول . والأول أبلغ ، لأن محبة الله لعبده أعظم لأنها أصل محبة العبد لمولاه . قال تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)[1] .

أهل المحبة

فمن أعطاه الله تعالى من حبه المذكور نصيباً فقد حاز ربح الدارين ، وفاز بقرة العين ، ومن حرمه ذلك فقد خسرت صفقته وبان غبنه وخيبته ، نسأل الله منته ورحمته .

قال زيد بن أسلم رضى الله عنه : إن الله عز وجل ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له : اصنع ما شئت فقد غفرت لك ا هـ ، من ابن عباد .

ولما كانت نهاية المحبة الفناء فى المحبوب ، ونهاية الفناء البقاء وهو الرجوع إلى الأثر أشار إلى ذلك الشيخ فقال فى المناجاة الموفية عشرين :

[إلهى أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعنى إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها ، كما دخلت عليك منها مصون السر عن النظر إليها ، مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، إنك على كل شىء قدير] .

قلت : الرجوع إلى الآثار : هو النزول من عش الحضرة التى هى الإغراق فى بحر الوحدة والغيبة عن السوى بالكلية إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ ، فينزلون إلى سماء الحقوق أدباً مع الربوبية ، وقياماً بحقوق العبودية ، وإلى أرض الحظوظ أدباً مع الحكمة وإظهاراً لوظائف العبودية .

ومثال الأول وهو النزول إلى سماء الحقوق ، ما يلزم العبد من العبادات البدنية أو المالية مؤقتة أو غير مؤقتة .

---

(١) المائدة : ٥٤ .

.ومثال الثانى وهو النزول إلى أرض الحظوظ ، ماتفتقر إليه البشرية من مأكل ومشرب وملبس ومنكح وغير ذلك من الأمور الحاجية ؛ وقد أمر الله تعالى بهما ليتميز سر الربوبيه من سر العبودية ، أو ليظهر استغناء الربوبية بافتقار العبوية ، فطلب الشيخ رضى الله عنه أن يرده إليها بعد أن كان رحل عنها بهمته بكسوة الأنوار وهى أنوار الشهود ، فيكون رجوعه إلى الأثر بالله غائبًا عن حظه وهواه ، وقد كان قبل أن يرحل عنها يتعاطاها بنفسه بعد متعته وحظه ، فلما عرف الحق غاب عن نفسه ، فإذا رجع إلى رسم بشريته رجع إليه بالله ، قد كساه أنوار الشهود عن الالتفات إلى سواه ، وطلب أيضًا ان يكون رجوعه إلى الآثار متلبسًا بهداية الاستبصار ، وهى تحقيق المعرفة فى الأشياء التى يتعاطاها كانت عبادات أو عادات ، فلا يسرقه فيها طبع ولاحس ، بل يدخل فيها بالله ومن الله وإلى الله ، ويخرج منها كذلك وهو معنى قوله حتى أرجع إليك منها : أى حتى تكون تلك الأشياء هى التى تردنى إليك حين نعرفك فيها ونشاهد عظمتك ونور جبروتك فيها ، إذ الوجود كله مستمد من بحر جبروتك . فالعارف يشرب من كل شيء ، ويتقوت من كل شيء ، يأخذ النصيب من كل شيء ، ولاينقص من نوره شيء .

فتحصل أن كسوة الأنوار هى دخوله فى العبادات وفى العادات بالله لابنفسه . وهداية الاستبصار : هى معرفته فى تلك الآثار التى نزل إليها ورجع لها . وقوله كما دخلت إليك منها ، معناه أنه كان مع الأكوان وهى حاجبة له عن شهود المكون ، فلما عرف فيها كان دخوله على الله منها ، وهذا كما قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

الْخَلقُ نَوَّارٌ وَأَنَا رَعَيْتُ فِيهِمُ
هُمُ الْحُجُبُ الْأَكْبَرُ وَالْمَدْخَلُ فِيهِمُ

وإذا دخل فى الأشياء بالله وشهد فيها أنوار الإله قطعاً كان مصون السر عن النظر إليها على أنها كونية مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ، كانت عبادات أو أسبابًا أو عادات ، لأن العارف غنى بالله ، لايفتقر إلى شيء سواء ، ولايعتمد إلا على مولاه ، فإنه غنى حميد ، سميع بصير ، على كل شيء قدير .

ثم إذا رجع العبد إلى الآثار فلابد أن يظهر على ظاهره أثر الذل والافتقار ، تحقيقًا لوظائف العبودية ، وقيامًا بآداب الربوبية ، كما أبان ذلك فى المناجاة الواحدة والعشرين بقوله :

[إلهى هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لايخفى عليك ، منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدل عليك لابغيرك ، فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك] .

قلت : هذا اعتراف منه رضى الله عنه بغاية الذل والانكسار ، وإظهار لشدة الفاقة والاضطرار ، وانطراح على باب مولاه فى إظهار ذله وبث شكواه ، فلا شك أن الله سبحانه قد كساه حلة العز والافتخار ، وبهاه بين خلقه بالظهور والاشتهار ، حتى صار كلامه تتحلى به القلوب والأسماع ، ويعظم به التأثير والانتفاع ، وذلك ثمرة من تذلل بين يدى العزيز الحكيم الغنى الكريم ، كما قيل :

تَـذَلَّـلْ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزَّةً
فَكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالذُّلِّ

وقال آخر :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى فَلَيْسَ الْهَوى سَهْلُ
إِذَا رَضِىَ الْمَحبوبُ صَحّ لَكَ الْوَصْلُ
تَذَلَّلْ لَهُ تَحْظَى بِرُؤيَا جَمَالِهِ
فَفِى وَجْهِ مَنْ تَهْوَى الْفَرائِضُ وَالنَّفْلُ

قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : ما أعز الله عبدًا بعز هو أعز له ، من أن يذله على ذل نفسه ، وما أذل الله عبدًا بذل هو أذل له ، من أن يحجبه عن ذلك نفسه اهـ . والحال الذى لايخفى على مولاه هو حال الضعف والافتقار والانكسار ، وإنما يكون ظهور ذلك الحال بتحقيق المعرفة والوصال ، ولذلك وصله بقوله : منك أطلب الوصول إليك لا من غيرك ولا على يد غيرك ولا إلى

غيرك ، بل أنت تتولى قبض أرواحنا إلى حضرتك بيدك ، وتحول بيننا وبين غيرك ، وهو معنى قوله وبك أستدل عليك لابغيرك ، إذ لاوجود لغيرك معك على التحقيق ، وقد تقدم قول من قيل له : بم عرفت ربك ؟ قال عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ماعرفت ربى .

وقال أحمد بن أبى الحوار رضى الله عنه : لادليل على الله سواه ، وإنما يطلب العلم لأدب الخدمة اهـ . وكما لا دليل عليه غيره كذلك لاهادى إليه سواه ، كما قال : فاهدنى بنورك إليك : أى اهدنى بنور التوجه فى حالة سيرى إليك ، وبنور المواجهة بعد وصولى إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك حتى نتحقق بالوصول إليك ، فنرجع إلى رسم العبودية فى عين شهود أنوار الربوبية : (وَاللهُ ذُو الفَضْلِ الْعَظِيمِ)[1] .

هناك تفيض العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، كما أبان ذلك بقوله فى المناجاة الثانية والعشرين :

[إلهى علمنى من علمك المخزون ، وصنى بسر اسمك المصون] .

قلت : العلم المخزون هو العلم الموهوب الذى يفيض على القلوب من حضرة علام الغيوب ، لاينال بحيلة ولااكتساب ، ولايؤخذ من دفتر ولا كتاب ، وإنما يعطى من حضرة الكمال مع حكمة صحبة الرجال أو بمحض الفضل والنوال . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَايَعْلَمُهُ إلَّا العُلَماءُ بالله تَعَالى ، فَإذَا نَطَقُوا بِهِ لَايُنْكِرُهُ إلَّا أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاللهِ » اهـ .

وهى أسرار الربوبية التى أخفاها الله عن خلقه ، ولم يطلع عليها إلا خواص أوليائه ، فإذا نطقوا بها مع غير أهلها ردوا عليهم ، وربما أباحوا دماءهم . ومنها الاطلاع على أسرار القدر وعجائب المغيبات . ومنها الاطلاع على مفاتح العلوم ومخازن الفهوم فيستخرجون بنتائج أفكارهم من درر الحكم ويواقيت العلم ، ماتكلّ عنه الألسن ، وتعجز عن حمله العقول .

---

(١) الحديد : ٢١ .

قال أبو بكر الواسطى فى قوله تعالى :

(وَالرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ يَقُولُونَ)[١] .

هم الذين رسخت أرواحهم فى غيب الغيب وفى سر السر فعرّفهم ماعرّفهم وخاضوا فى بحار العلوم بالفهم لطلب الزيادة ، فانكشف لهم من ذخائر خزائن الغيب تحت كل حرف من كتاب الله وآية من كلام الله عجائب الإدراكات الوهبية ، فنطقوا بالحكمة البالغة والألفاظ السابغة .

أولئك حزب الله ، أولئك حزب الله ، أولئك حزب الله .

وقال بعض التابعين : أسرار الله تعالى لايبديها إلا لأمناء أوليائه من غير سماع ولادراسة . وكان الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول : شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ولم يشاركونا فيما نحن فيه . وكان أكثر كلامه فى العقل الأكبر ، والاسم الأعظم ، وشعبه الأربع ، ودوائر الأولياء ، ومقدمات الموقنين ، والأملاك المقربين ، وعلوم الأسرار ، وأمداد الأذكار ، ويوم المقادير ، وشأن التدبير ، وعلم البدء ، وعلم المشيئة ، وشأن القبضة ، ورجال الغيب ، وعلوم الأفراد ، وأخبار القيامة ، وهذا كله من العلم المخزون .

وأما المصون الذى طلب ، فهو صيانة من رؤية الأغيار ، أو الوقوف مع الأنوار ، دون معرفة الواحد القهار ، واسمه المصون هو اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى . وسره هو ظهور تصرفه فيما طلب به ، والله تعالى أعلم .

ثم إذا تحقق الصون من الأغيار دخل القلب فى حضرة الأسرار ، وهى حضرة المقربين من السالكين والمجذوبين ؛ كما أبان ذلك فى المناجاة الثالثة والعشرين بقوله :

[إلهى حققنى بحقائق أهل القرب ، واسلك بى مسالك أهل الجذب] .

قلت : الحقائق جمع حقيقة ، وهى إدراك معرفة الأشياء على ماهى عليه بالأصالة ، وحقائق أهل القرب هى علومهم ومعارفهم وأذواقهم وكشوفاتهم ،

---

(١) آل عمران : ٧ .

وأهل القرب المقربون ، سواء كانوا من أهل المراقبة الكاملة أو المشاهدة أو المكالمة ، فالقرب يتفاوت بتفاوت السير والتصفية ؛ فيكون أولا مراقبة ، ثم شهودًا ووصولا ، ثم محوًا واضمحلالا ، ثم بقاء وتنزلا ، وهذا يكون بالمجاهدة والمكابدة وهو مقام أهل السلوك من المحبين ، ويكون جذبًا وعناية ، وهو مقام أهل الجذب من المحبوبين ، وقد يكون أولا مجاهدة وآخرًا جذبًا وعناية ، وهو أعظم قدرًا وأعم نفعًا وأنفع تربية ، وهو الذى أراد الشيخ رضى الله عنه ، لأنه طلب أولا التحقيق بحقائق أهل القرب وهم أهل التقرب حتى أحبهم الله ، ثم طلب ثانيًا سلوك أهل الجذب ، وهم المحبوبون الذين اجتباهم الله واختطف أرواحهم من شهود الأغيار إلى شهود الأنوار . قال تعالى :

(اللهُ يَجْتَبِى إليهِ مَنْ يَشَاء) وهم المحبوبون (وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنيبُ)[1] وهم المحبون .

فأراد الشيخ أن يكون جامعًا بين سلوك وجذب وهو أعظم من غيره .

وقال بعضهم : أهل القرب هم أهل الحضرة المستغرقون فى الشهود ، لأن الله تعالى ليس فى حقه قرب ولا بعد ، وإنما ذلك فى حق العبد ، فمن رفع الحجاب عن عين قلبه ، وفاضت عليه أنوار قربه ، رمته المراقبة للمشاهدة ، والمشاهدة للمكاشفة ، والمكاشفة للمعاينة ، والمعاينة للمسامرة والمحادثة والمكالمة ، وصار الحق أبدًا جليسه وأنيسه ، فهذا هو التقريب للعبد بعد البعد وخرق جميع الحجب ؛ وهذا المقام هو الذى طلب الشيخ أبو الحسن بقوله : واقرب منى بقدرتك قرباً تمحق به عنى كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك إلخ .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : أهل المحبة والشوق على قسمين قوم اشتاقت نفوسهم على الغيبة ، فلا سكون لهم إلا باللقاء . وقوم اشتاقت أرواحهم على الحضور والمعاينة والشهود ، فلا سكون لهم إلا بالغوص فى بحر الأسرار وتنزل المعانى على قلوبهم .

وقال أبو يزيد رضى الله عنه : لله رجال لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته

---

(١) الشورى : ١٣ .

لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار ، لكنهم على الأرائك ينظرون .

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة ، لأنهم معه أبدًا ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « المَرْء مَعَ مَنْ أحَبَّ » .

وسأل جماعة من المشايخ الجنيد رضى الله عنه عن المحبة ؟ فبكى وقال : كيف أصف عبدًا ذاهبًا عن نفسه ، متصلا بذكر ربه ، قائمًا بأداء حقوقه ، ناظرًا إليه بعين قلبه ، قد أحرق قلبه نار هيبته ، وصفا شربه من كأس ورده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ؟ فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فمن الله ، وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله ، وهو بالله ولله ومع الله اهـ . فقالوا : ما على هذا مزيد ياتاج العارفين ، وهذا الوصف صادق بأهل السلوك والجذب ، والله تعالى أعلم .

ولاشك أن من بلغ هذا لمقام ، ورسخت المحبة والمعرفة فى قلبه على التمام ، لم يبق له مع محبوبه تدبير ولا اختيار ، ولاتشوق ولا انتظار ، كما أبان ذلك فى المناجاة الرابعة والعشرين بقوله :

[إلهى أغننى بتدبيرك عن تدبيرى ؛ وباختيارك عن اختيارى ، وأوقفنى على مراكز اضطرارى] .

قلت : الاستغناء بتدبير الله عن تدبير النفس ، وباختيار الحق عن اختيار العبد . إنما يكون بعد الغيبة عن النفس بشهود مدبر الأمور والمتصرف فيها ، وهو الفاعل المختار الواحد القهار ، لأنه هو المنفرد بالتدبير والاختيار ، والمشيئة والاقتدار . وأما قبل الغيبة عنها بمعرفة سيرها فلا يتخلص العبد من كدر التدبير ، وظلمة التكدير ، ولذلك طلب الشيخ أن يغيبه الله بمعرفة حتى تجتمع همومه وقصوده وإرادته واختياراته فى هم واحد وهو شهود محبوبه ، كما قال القائل :

كَانَت لِقَلْبِىَ أهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ
فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأتْكَ الْعَيْنُ أهْوَائى

فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنتُ أَحْسُدُهُ
وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْ صِرْتَ مَوْلَائى
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمُ
شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَادِينِي وَدُنْيَائى

فقوله أغننى بتدبيرك : أى بشهود تدبيرك ، وشهود تدبيره لايكون إلا بعد معرفته كما تقدم وطلب أيضًا الوقوف على مراكز الاضطرار ، وهو التعزز فى مقام العبودية فى الظاهر على الدوام ، لأن العارف لايزول اضطراره ، ولا يكون مع غير الله قراره باطنًا ، وقد تقدم هذا ، ومركز الشىء : محل استقراره الذى يركز فيه ، وهى هنا استعارة عن تحقق العبودية ، وهى أن يعرف قدره ، ولايتعدى طوره ، فمن تخلص من ظلمة التدبير والاختيار ، ووقف على مراكز الاضطرار ، فقد تحرر من ذل نفسه ، وتطهر من شرك تخمينه وحدسه ، كما أبان ذلك فى المناجاة الخامسة والعشرين بقوله :

[**إلهى أخرجنى من ذل نفسى**] .

وهو ذلها لغير الله بالطمع والحرص اللذين هما بذرة شجرة الذل .

[**وطهرنى من شكى وشركى ، قبل حلول رمسى**] .

قلت : لعل المراد بالشك هنا خطور خصيم الفرق وهو الخصيم الظلمانى ، أو يريد بالشك خواطر الرزق التى لاتثبت .

وقال الشيخ ابن عباد رضى الله عنه : الشك ضيق الصدر عند إحساس النفس بأمر مكروه يصيبها ، فإذا ضاق صدره بسبب ذلك أظلم قلبه وأصابه من أجله الهم والحزن ، وطهارته منه إنما تكون بوجود ضده وهو اليقين ، فبه يتسع الصدر وينشرح ، ويزول عنه الحرج والضيق ، وبقدر احتظاء القلب من نور اليقين يكون انشراح الصدر واتساعه وعند ذلك يجد القلب الروح والفرح بالله تعالى وبفضله . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللهَ بِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ بِالرضَا وَالْيَقِين ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فى السُّخْطِ والشَّك » اهـ .

والشرك : تعلق القلب بالأسباب عند غفلته عن مسبب الأسباب تعلق الصيد بالشرك ويكون مبدأ ذلك هيجان الشهوة عند استيلاء ظلمة الشك على القلب ، فيحلو له الهوى فيفزع إذ ذاك إلى الأسباب التى يتوصل بها إلى بغيته لايرى غيرها ، فيشتبك من أجل ذلك فى حبائل الشرك وطهارته منه بضده ، وهو نور التوحيد الذى يقذفه الحق تعالى فى قلبه ، فتطمئن بذلك نفسه ، وتسكن من الشره والطيش الذى أصابها ، وكلما قوى التوحيد فى قلبه كان خلاصه من الشرك أكثر ، فتمحى من قلبه الأسباب ، ويثبت فيه خالص التوحيد ، فإذا تطهر العبد من الشرك والشك تولاه الله بالهداية والتسديد والمعونة والتأييد .

وفى أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه : يادواد هل تدرى متى أتولاهم ؟ إذا طهروا قلوبهم من الشرك ، ونزعوا من قلوبهم الشك اهـ .

ويحتمل أن الشيخ إنما طلب طهارته من الشك والشرك عند نزول الدواهى الطوام ، لأنها مظنة الشكوك والأوهام ، فلا يشك فى لطف الله عند نزول قدره ، ولايتعلق بسبب ولاغيره ، فيكون إبرهيميًّا حنيفيًّا إذا ألقى فى نار الجلال وقال له الكون ألك حاجة ؟ فيقول له بلسان حاله أو مقاله : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى ، فإذا قال له سله يقول له : علمه بحالى يغنى عن سؤالى ، فلاجرم أن الله تعالى يقول لنار الجلال : كونى على وليى بردًا وسلامًا ، فتنقلب جمالا محضا . فإذا تخلص العبد من الشك والشرك فى ذلك الوقت ، كان موحدًا حقيقيًّا ، وإبراهيميًّا حنيفيًّا فلا يعتمد إلا على الله ، ولايستنصر إلا به ، كما قال الشيخ .

[**بك أستنصر**] لابغيرك .

[**فانصرنى ، وعليك أتوكل**] أى أفرض أمورى كلها إليك .

[**فلا تكلنى**] أى تحوجنى إلى غيرك .

[**وإياك أسأل**] حوائجى كلها لا من غيرك .

[**فلا تخيبنى**] مما رجوت ، لأنك كريم تستحى أن ترد من رفع يديه إليك صفرين : أى خائبتين .

[**وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى**] من فضلك العظيم .

[**ولجنابك**] أى حماك وحرمك ..

[**أنتسب فلاتبعدنى**] من حماك وجوارك ، يسوء أدبى معك وأنت عفو حليم [**وببابك أقف**] وأتضرع ، وألزم ذلك الباب وأقرع .

[**فلا تطردنى**] إذ ليس من شأن الكريم أن يطرد عن بابه العظيم أو يردّ من أمَّ بحر جوده العميم :

وَنَحْنُ كِلَابُ الدَّارِ طَبْعًا وَلَمْ نَزَلْ
نُحِبُّ مَوَالِيهَا وَنَحْرُسُ بَابَهَا
إِذَا طُرِدَتْ يَوْمًا كِلَابُ قَبِيلَةٍ
فَقَوْمِى كِرَامٌ لَاتُهِينُ كِلَابَهَا

قال على بن هند الفارسى رضى الله عنه : اجتهد فى ألا تفارق باب سيدك بحال ، فإنه ملجأ الكل ، فمن فارق تلك السدّة لايرى بعدها لقدميه قرارًا ولامقامًا اهـ . وإذا لزمت الباب أعطاك قبل الطلب ، ومنحك بلا سبب ، وإلى ذلك أشار فى المناجاة السادسة والعشرين بقوله :

[**إلهى تقدس رضاك أن تكون له علة منك ، فكيف تكون له علة منى**] .

قلت : رضا الله تعالى لاينال بسبب ولاعمل ولاطلب ، وإنما هو منح إلهية ومواهب اختصاصية .

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[1] .

فقد تنزه وتقدس رضا الله تعالى عن أن تكون له علة منه ، لأنه قديم ، فكيف تكون له علة من غيره وهو الغنى الكريم ، ولذلك قال :

[**أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لاتكون غنيًّا عنى**] .

فكما تنزه رضاه وسخطه عن أن تكون لها علة أو سبب ، كذلك تنزهت ذاته المقدسة عن إيصال المنافع منه أو من غيره ، فكما أن ذاته المقدسة قديمة كذلك أوصافه المطهرة قديمة أزلية .

---

(١) آل عمران : ٧٤ .

قال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه : الرضا والسخط نعتان من نعوت الحق يجريان على الأبد بما جريا به فى الأزل ، يظهران الوسمين على المقبولين والمطرودين ، فقد بانت شواهد المقبولين بضيائها عليهم ، كما بانت شواهد المطرودين بظلمها عليهم ، فأنى تنفع من ذلك الألوان المصفرة ، والأكمام المقصرة ، والأقدام المنتفخة اهـ ، لكن جرت عادة الله تعالى وسنته أن من ظهرت عليه الطاعات والإحسان ، كان ذلك علامة الرضا والرضوان ، ومن ظهرت عليه المخالفة والعصيان ، كان ذلك علامة السخط والخسران وبهذا جاءت الشرائع ، والمرء يموت على ماعاش عليه ، والنادر لاحكم له ، والله تعالى أعلم .

وقد قال بعض العلماء فى قوله عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتّى مَا يَبْقى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعمل بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتّى مَايَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ » .

إن الأول كثير بفضل الله ، والثانى نادر لاحكم له ، كسبقية رحمة الله غضبه : (وَالله يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ)[1] .

ومع هذا لم تزل الأكابر تخاف من السابقة أو الخاتمة ، إذ لايدرى ماسبق به القضاء والقدر ، كما أشار إليه الشيخ فى المناجاة السابعة والعشرين بقوله :

[**إلهى إن القضاء والقدر قد غلبنى**] .

فكم أعزم على الطاعة والقضاء يغلبنى ؟ وكم أفر من المعاصى والقدر يقحمنى ؟ فلاحيلة لى إلا رجاء حولك وقوتك .

[**وإن الهوى بوثائق**] أى بحبائل .

[**الشهوة أسرنى**] .

أى ربطنى وحبسنى عن النهوض إلى حضرتك ، والفوز بدخول جنتك .

---

(١) الأحزاب : ٤ .

[فكن أنت الناصر لى] دون واسطة من غيرك .

[حتى تنصرنى] على من يصدنى عنك .

[وتنصر بى] من تعلق بجنابى أو لاذ بسببى ، وهذا كما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : وأغننا بلا سبب ، واجعلنا سبب الغنى لأوليائك ، وبرزخًا بينهم وبين أعدائك ثم سأل الغنى الأكبر فقال :

[وأغننى بفضلك حتى أستغنى بك عن طلبى] .

فإن العبد إذا تعمر قلبه بالله استغنى به حتى عن طلبه ، وربما دهم الأدب على ترك الطلب ، وهذه هى السعادة العظمى والولاية الكبرى ، كما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : فالسعيد حقًا من أغنيته عن السؤال منك ، وهذه نتيجة أنوار الولاية التى أشرقت فى قلوب العارفين ، وهذا معنى قوله :

[أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك] .

حتى ظهر الحق وزهق عنهم الباطل ، فعرفوك ووحدوك .

[وأنت الذى أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك] فملأتها بأنوار شهودك فأحبوك ولم يحبوا سواك ، لأنهم لم يشهدوه .

[وأنت المؤنس لهم] بحلاوة ذكرك ، وشهود نورك .

[حيث أوحشتهم العوالم] .

فلم يستأنسوا بشىء منها ، بل استوحشوا منها من حيث كونيتها ، واستأنسوا بصانعها والمتجلى فيها ، فأبدلهم الله الأنس به فى الخلوات ، والمجالسة معه فى الفلوات ، بحلاوة المشاهدة والمكالمة والمسارة والمناجاة ، وهذا هو النعيم المقيم ، والفوز العظيم .

قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : بينما أنا أمشى فى البادية إذ لقيتنى امرأة فقالت من أنت ؟ فقلت رجل غريب ، فقالت : وهل توجد مع الله غربة ؟

وكتب مطرف بن عبد الله بن الشخير إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : وليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ، فإن لله عبادًا استأنسوا بالله ، فكانوا فى وحدتهم أشد استئناسًا منهم مع الناس فى كثرتهم ، وأوحش مايكون الناس آنس مايكونون ، وآنس مايكون الناس أوحش مايكونو اهـ .

[أنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم] .

أى أنت الذى هديتهم طريق الوصول إلى حضرتك ، حتى استبانت : أى ظهرت لهم معالم : أى علامات التحقيق ، وهذا من الشيخ رضى الله عنه تعريض بالسؤال ، وهو أعظم من التصريح ، وكأنه يقول : إلهى كما أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ، وكما أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى أحبوك ، وكما آنستهم حيث أوحشتهم العوالم ، وهديتهم حتى استبانت لهم المعالم ، فأشرق أنوار المعارف فى قلبى حتى أعرفك ، وأزل الأغيار من قلبى حتى أحبك ، وآنسنى بك حيث أوحشتنى العوالم واهدنى إلى طريق التحقيق حتى نتبين لى المعالم ، فأستغنى بك عن كل شىء ، وأجدك عندى كل شىء ، كما قال :

[ماذا وجد من فقدك] .

ولو ملك الدنيا بحذافيرها فهو أفقر الفقراء ، كما قال الشاعر :

لِكُلِّ شَىْء إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ
وَلَيْسَ للهِ إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضِ

قيل للشبلى : أى الخسران أعظم ؟ قال : من فاتته الجنة ودخل النار ؛ فلما مات رؤى فى المنام ، فقيل له : مافعل الله بك ؟ فقال لم يطالبنى بالبراهين والدعاوى إلا على شىء واحد ، قلت ذات يوم : لا خسارة أعظم من خسران الجنة ودخول النار ، فقال لى : وأى خسارة أعظم من خسران لقائى : أى شهودى ومعرفتى .

[وما الذى فقد من وجدك] .

لقد ملك الوجود بسره ، واستغنى غنى لافقر بعده آخر دهره .

[لقد خاب من رضى دونك بدلا] .

أى لقد خاب وخسر من أحب شيئا دونك ، ورضيه بدلا بك ، وأنشدوا :

سَهَرُ الْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ بَاطِلُ
وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ ضَائِعُ

أَيَظَنُّ أَنِّى فيك مُشْتَرِكُ الْهَوَى
هَيْهَاتَ قَدْ جَمَعَ الْهَوَى بِكَ جَامِعُ
بَصَرِى وَسَمْعِى طَائِعَانِ وَإِنَّمَا
أَنَا مُبْصِرٌ بِكَ فى الْحَيَاةِ وَسَامِعُ

[ولقد خسر من بغى عنك متحولا] .

أى ولقد خسر من أوقفته ببابك ، ثم طلب باب غيرك ، وتحول إليه والتجأ إلى غير جنابك ، فلا أخسر منه ، ولا أبخس صفقة من تجارته ، ترك باب الكريم ، والتجأ إلى باب العبد اللئيم ، فقوله متحولا مفعول لبغى بمعنى طلب ، وهو اسم مفعول بمعنى المصدر ، وعنك متعلق بالمصدر : أى ولقد خسر من طلب تحولا عن جنابك العظيم وبابك الكريم :

[كيف يرجى سواك وأنت ماقطعت الإحسان ؟] .

ولا تقطعه أبدًا عن الإنسان .

[أم كيف يطلب من غيرك وأنت مابدلت عادة الامتنان ؟] .

بل امتنانك فائض على الأنام ، وهو واصل إليهم على الدوام . عرفه العارفون ، وجحده الغافلون .

[يامن أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته] .

وذلك حين استوحشوا من مؤانسة غيره .

[فقاموا بين يديه متملقين] .

قلت : التملق : هو التلطف فى بث الشكوى ، والتودد بمساررة النجوى . وفى الحديث : « إِذَا أَحَبَّ الله عَبْدًا قَالَ لِلمَلَائِكَةِ إِذَا دَعا أَخِّروا حاجَةَ عَبْدِى ، فَإِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ » .

فالتملق بين يدى الحبيب ، ومساررة القريب ، هى من أعظم الرغائب ، وأفضل المطالب ، لايعرفها إلا أهل الشوق والاشتياق ، كما قال الشاعر :

سَفِينَةُ الحُبِّ فى بَحْرِ الْهَوَى وَقَفَتْ
فامنن عَلَىَّ بِرِيحٍ مِنْكَ يُجْرِيهَا

لَايَعْـرِفُ الشَّـوْقَ إلَّا مَـنْ يُكَـابِـدُهُ
وَلَا الـصَّبَـابَـةَ إلَّا مَـن يُـعَـانِـيهَـا
لَا أَوْحَشَ الله مِـنْـكُـمْ مَـنْ يُحِـبُّـكُـمُ
وَآنَسَ الله دَارًا أَنْـتُـمُ فِـيـهَـا

[يامن ألبس أولياءه] العارفين .

[ملابس هيبته] .

حتى هابهم كل شيء ، وخاف منهم كل شيء ، ولم يخافوا من شيء ، وفى الحديث : « مَنْ خَافَ اللهَ خَافَ مِنْهُ كُلُّ شَيْء ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللهَ أَخَافَهُ كُلُّ شَيْء » . وحيث ألبسهم لباس هيبته .

[فقاموا بعزته مستعزين] .

لما رفعوا همتهم عن الخلق أعزهم الله ، ولما رفعوا همتهم عن الدنيا أعزهم الخلق ، فإن الولى إذا أراد الله أن يرده إلى خلقه لينفع به عباده ألبسه حلتين ، حلة البهاء والجمال ، ليقبل الناس عليه بالمحبة والوصال ، فيغنيهم الله به . وحلة الهيبة والجلال ، ليمتثل أمره إذا أمر ، ويجتنب نهيه إذا نهى . وهاتان الحلتان يكساهما عند الرسوخ والتمكين ، وإلى ذلك أشار بعض الشعراء والله أعلم بقوله :

إنَّ عِرْفَانَ ذِى الْجَلَالِ لَعِزٌّ وَضِيـاء وَبَهْجَـةٌ وَسُـرُورُ
وَعَلَى الْعَارِفِـينَ أَيْضًا بَهَـاءٌ وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْمَحَبَّـةِ نُـورُ
فَهَنِيئًـا لِمَنْ عَـرَفَـكَ إلٰهِى هُـوَ وَاللهِ دَهْـرُهُ مَسْـرُورُ

فلما كانوا لله وبالله ومع الله أعزهم الله وأعزهم من أعزهم . قيل فى تفسير قوله تعالى : (تُعِزُّ مَنْ تَشَاء)[1]

قال : بأن يكون لك بك معك بين يديك اهـ ، وسبب العز من الله هو ذكر الله كما قال :

---

(١) آل عمران : ٢٦ .

[أنت الذاكر من قبل الذاكرين] .

أى أنت الذاكر لهم من قبل أن يذكروك ، فلولا ذكرك إياهم ما ذكروك .

قال أبو يزيد رضى الله عنه : غلطت فى بداية أمرى فى أربعة أشياء ، توهمت أنى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما انتبهت رأيت ذكره سبق ذكرى ، ومعرفته سبقت معرفتى ، ومحبته أقدم من محبتى ، وطلبه لى أولا حتى طلبته .

[وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين] .

فلما بدأتهم بالإحسان توجهوا إليك بالطاعة والإذعان .

[وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين] .

جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى الأسباب والعلل .

[وأنت الوهاب ، ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين] .

فقد وهبت لنا النعم ، وأمرتنا بالسخاء والكرم ، ووفقتنا لعطائها ، ووعدتنا بالنعيم الجزيل عليها ، فلله ماأعطى ، وله ماأخذ فإذا عرف العبد هذا لم تبق له وسيله يتوسل بها إلا فضل الله وكرمه .

وفى مناجاة الجنيد رضى الله عنه : يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ، يابادئ العارفين بما فيه عرفوه ، ياموفق العابدين لصالح ماعملوه ، من ذا الذى يشفع عندك إلا بإذنك ، من ذا الذى يذكرك إلا بفضلك ، واستقراض الرب من عبده ماوهبه له غاية فى ترفيعه لقدره وإبانته لشرفه ، ووعده مع ذلك جزيل الثواب نهاية فى إكرامه له وتفضله عليه .

وقال بعضهم : ملّكك ثم اشترى منك ماملّكك ، ليتبت لك معه نسبة ، ثم استقرض منك ما اشتراه ، ثم وعدك عليه من العوض أضعافًا بين فيه أن نعمه وعطاياه بعيدتان عن أن تكونا مشوبتين بالعلل اهـ .

قال ابن عباد رضى الله عنه : ولما بين أن طلب الحق سابق على طلب العبد طلب منه أن يطلبه ليتحقق منه الطلب ، فقال فى المناجاة الثامنة والعشرين :

[إلهى اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك] .

أى اطلبنى برحمتك الأزلية حتى أطلبك وأصل إليك ، فإن الطلب سابق الوصول ، وهذه طريقة السلوك .

ثم أشار إلى طريق الجذب والعناية فقال :

[**واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك**] .

قلت : ولو عكس لكان أحسن ؛ فيقول اطلبنى برحمتك حتى أقبل عليك واجذبنى بمنتك حتى أصل إليك ، فإن الجذب هو الاختطاف من شهود الأكوان إلى شهود المكون ، والغالب أن يكون بعد التوجه والطلب والمجاهدة والتعب ، وقد يجذب أولا ثم يرد إلى السلوك ، والأول أكمل .

ثم إذا حصل طلب الرب لعبده حتى وصل إليه لاينقطع عنه خوفه ورجاؤه ، كما أبان ذلك فى المناجاة التاسعة والعشرين بقوله :

[**إلهى إن رجائى لاينقطع عنك وإن عصيتك ، وإنّ خوفى لايزايلنى وإن أطعتك**] .

قلت : لما كانت السابقة مبهمة والخاتمة مجهولة كان العبد بين خوف ورجاء ولو بلغ مابلغ ، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، والنواصى بيد قدرته تقودها حيث شاءت . قال الشاعر :

حَسْبِىَ اللهُ تَـوَكَّلْتُ عَلَيْـهِ مَنْ نَوَاصِى الْخَلْقِ طرًّا فى يَدَيْهِ
لَيْسَ لِلْهَـارِبِ فِى مَهْـرَبِـهِ أَبَـدًا لا مَلْجَـأٌ إلَّا إلَيْـهِ

فكيف يصح للعبد أن ينقطع خوفه إن أطاع ، أو يقل رجاؤه إن عصى ، وقد تقدم فى أول الكتاب أن خوف العارفين ورجاءهم ناشئ عن شهود صفة الجلال والجمال وهما لا يتغيران ، فكذلك ماينشأ عنهما ، ولذلك وصف الشيخ نفسه بهذه الحالة الشريفة وهى الاعتدال على الدوام ظهرت منه طاعة أو معصية ، وراجع ماتقدم ، وانظر عند قوله : لاكبيرة إذا قابلك فضله إلخ .

فإذا تحقق أن العبد لامهرب له فى حال عصيانه إلا وقوفه ببابه ولاسكون له فى حال طاعته إلا إلى كرمه وإحسانه علم أنه مدفوع إليه على كل حال ، وهذا معنى قوله :

[**قد دفعتنى العوالم إليك**] .

فمهما ملت إلى شىء دفعتنى عنه أو ركنت إليه حركته على حتى تدفعنى إليك، فما أرحمك بى مع عظيم جهلى ، وهذه علامة العناية من الله لعبده ، فمهما رآه

وقف مع شىء أو ركن إلى شىء ولو كان طاعة شوّشه عليه ورحله منه ، وقد تقدم أن من جملة العقوبة التى يعاقب بها المريد تركه وما يريد .

وقال شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه : إذا رأيتم الفقير يقوم الغواث والتشويش عليه من كل جهة ، فاعلموا أن الله تعالى يريد أن يسكنه عنده أو كلامًا هذا معناه .

والحاصل : أن الحق تعالى غيور لايحب قلب عبده أن يركن إلى غيره ، وهذا من كرمه تعالى وإحسانًا إلى عباده ، ولذلك قال :

[وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك] .

قلت : لما دفعته العوالم إليه لم يجد كريمًا سواه ، فأوقفه كرمه على بابه ، ولاذ بجنابنا ، والكريم لاتتخطاه الآمال . قيل : معنى كرم الله إحسانه لعباده ، وقيل : الذى لايدع حاجتهم لغيره ، وقيل : الذى يعطى قبل السؤال .

قال الجنيد : الكريم الذى لايحوج إلى السؤال . وقال المحاسبى : الذى لايبالى من أعطى ولاكم أعطى . وقيل : إن من فهم كرم الله تعالى لم يجزع من سوء قضاء ، لأنه يرى المصيبة نعمة مستورة عن إدراك الخلق ، كما قال سيدنا عمر رضى الله عنه : ما أصابنى الله بمصيبة إلا رأيت لله فيها ثلاث نعم : الأولى حيث لم تكن فى دينى . الثانية حيث لم تكن أعظم مما وقعت . الثالثة أن الخطايا تكفر بها . فأنا أشكر الله عليها اهـ . ولهذا قالوا : ليس العجب ممن يلتذ بالنعيم ، إنما العجب ممن يلتذ بالعذاب الأليم ؛ وذلك لايكون إلا بخرق عادة النفس حتى تلتذ بما يتألم به الناس ، كما قال القائل :

أُرِيدُكَ لَا أُرِيدُكَ لِلثَّوَابِ ... وَلٰكِنِّى أُرِيدُكَ لِلْعِقَابِ
وَكُلُّ مآرِبِى قَدْ نِلْتُ مِنْهَا ... سِوَى مَلْذُوذِ وَجْدِى بِالعَذَابِ

وقال آخر :

إِذَا كَانَتِ الْأَقْدَارُ مِنْ مَالِكِ الْمُلْكِ
فَسِيَّانَ عِنْدِى مَايَسُرُّ وَمَا يُبْكِى

والحاصل : أن المحبة إذا قويت غيبت المحب عن الآلام وإلا فهى ناقصة ؛

ومنشأ المحبة شهود الكرم كما تقدم .

ومن وقف بباب كرم مولاه لايخيب أمله ومناه ، كما أبان ذلك فى المناجاة الموفية ثلاثين بقوله :

[إلهى كيف أخيب وأنت أملى] .

أى محل طمعى ورجائى ، والكريم لايخيب آمال الطامعين ، وهو أكرم الأكرمين .

[أم كيف أهان وعليك متكلى] وقد قلت فى كتابك العزيز :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

أى كافيه ، ومن كنت كافيه وناصره لايهان أبدًا .

حكى أن بعض الأولياء ولدت له بنية فى آخر عمره وماتت أمها وحضرته الوفاة ، فقال له رجل أوصنى عليها أكفلها ، قال : لاولكن إذا أنا مت فاحملها إلى حرم الله ودعها فى الحجر وامض ودعها فى كفالة الله ، فلما مات فعل الرجل ذلك وصار يرقبها على بعد ، فرأتها أم الخليفة وهى تطوف فأمرت بحملها لها ، فتبنتها وربتها حتى بلغت وزوجتها لابن الوزير ، وأصدقتها عشرين ألف دينار ، فانظر حالَ من توكل على كفالة مولاه ، وآوى إلى حصن رعايته وحماه ، وأنشدوا :

أَيَحْسُنُ بِي فِي دَارِكُمْ وَنُزُولِكُمْ
أُوَجِّهُ يَوْمًا لِلْعِبَادِ رَجَائِيَا
يَحِقُّ لِمِثْلِي أَنْ يَعُودَ لِمِثْلِكُمْ
وَأَنْ أَتْرُكَنْ جَمْعَ الْعِبَادِ وَرَائِيَا

وحكى أن رجلا كانت له امرأة حاملة وأراد سفرًا فلما خرج لسفره قال : اللهم إنى أستودعك مافى بطن هذه المرأة ثم غاب ، فلما قدم من سفره سأل عنها ؟ فقيل له : إنها ماتت وهى حامل ، فلما كان الليل خرج إلى المقابر فرأى نورًا فتبعه ، فإذا هو فى قبرها فنبش عليها ، فإذا بالصبى يرضع فى ثديها فهتف

به هاتف : ياهذا إنك قد استودعتنا الولد فوجدته ، أما إنك لو استودعتنا أمه لوجدتهما جميعًا اهـ من التنوير ، فما ألطفه سبحانه بمن استرعاه وما أحفظه لمن دخل حماه .

اللهم اجعلنا ممن تحصن بك فكفيته ، وممن استرعاك فى تركته فرعيته ، ياأرحم الراحمين .

ولاشك أن من دخل تحت خفارة العزيز كان عزيزًا بالله ذليلا له . وإليه أشار فى المناجاة الحادية والثلاثين بقوله :

[إلهى كيف أستعزّ وفى الذلة أركزتنى] .

أى كيف أستعز عليك وأنت فى ذل العبودية أركزتنى ؟ أى أقررتنى وأقمتنى .

[أم كيف لا أستعز وإليك نسبتنى] .

أى أم كيف لاأستعز فى قلبى وروحى وسرى وإليك نسبتنى لما أودعت فى قلبى من سر الخصوصية ونور المعرفة وقوة الحرية ، فقلت ياعبدى وياوليى ، ولاشك أن هذه النسبة توجب الافتخار على الوجود ، والتيه على كل موجود ، فذل العارف يرجع إلى ظاهره عبودية ، وعزه يرجع إلى باطنه حرية بما شهد من أنوار الربوبية ، وإليه أشار بعضهم بقوله :

نَحْنُ إنْ كُنَّا بِهِ تُهْنَا دَلَالاً عَلَى كل الْحَرَائِرِ وَالْعَبِيدِ
وَإنْ نَحْنُ رَجَعْنَا إلينا عَطَّلَ ذُلُّنَا ذُلَّ الْيَهُودِ

قال بعضهم : رأيت ذل كل ذى ذل فزاد ذلى على ذلهم ، ونظرت فى عز كل ذى عز فزاد عزى على عزهم اهـ .

وقال الشبلى رضى الله عنه : لقد ذللت حتى عز فى ذلتى كل ذى ذل ، وعززت حتى ماتعزز أحد إلا بى ومن به تعززت .

ثم إن الفقر أخو الذل ، ولذلك قرنه به فى المناجاة الثانية والثلاثين فقال :

[إلهى كيف لا أفتقر إليك وأنت الذى فى الفقر أقمتنى] .

لأن أنفاسى بيدك ، فأنا فقير إليك فى كل لحظة فى إيجادى وإمدادى . قال تعالى : (يٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ) .

وهذا هو الفقر إلى نعمة الإيجاد ؛ ثم قال تعالى :

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)[1] .

وهذا هو الفقر إلى نعمة الإمداد .

[أم كيف أفتقر إلى غيرك وأنت الذى بجودك أغنيتنى] .

حيث كفيتنى ما أهمنى وتكفلت لى برزقى وما تقوم به بنيتى ، وأغنيتنى بمعرفتك حتى لا أحتاج إلى غيرك . وفى الحديث :

« لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » .

أى الروح ؛ وغناها إنما يكون بربها .

[أنت الذى لا إله غيرك تعرّفت لكل شىء] .

بما أظهرت له من نور جلالك وجمالك ، فصار مسبحًا بحمدك وساجدًا لك .

[فما جَهلك شىء] .

فالكل عارف بك ومقر لك بالربوبية ، إما طوعًا ظاهرًا وباطنًا ؛ وإما باطنًا فقط لتظهر حكمتك .

[وأنت الذى تعرّف إلى فى كل شىء] .

من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار .

[فرأيتك ظاهرًا فى كل شىء] .

بنورك الأزلى الذى أفنى وجود كل شىء .

[فأنت الظاهر لكل شىء وأنت الباطن لكل شىء] .

وفى الحديث : « اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَىءٌ ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَىْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَىْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَىْءٌ » .

وقد تقدمت أقسام الظهور مستوفاة فى أول الكتاب . وعبر هنا بعبارة لم تتقدم فقال :

---

(١) فاطر : ١٦ .

[يا من استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبًا فى رحمانيته ، كما صارت العوالم غيبًا فى عرشه] .

قلت : أشار إلى تفسير قوله تعالى : (الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[1] وقوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ)[2] .

فذكر أن استواء الحق تعالى على العرش إنما هو برحمانيته ، فهو مغمور فى رحمانية الحق حتى صار غيبًا فى رحمانيته ، إذ لا نسبة له معها ، ورحمانية الحق تعالى وصف قائم بذاته ، والصفة لازمة للموصوف ، فإذا غاب العرش وانطوى وجوده فى رحمانية الحق غابت العوالم أيضًا فى رحمانيته ، لأنها غابت فى وجود العرش ، فلما انطوى وجود العرش فى عظمة الحق ورحمانيته انطوى وجود العوالم كلها ، لأنها فى جوف العرش كحلقة فى الأرض وهو محيط بها ، كما أحاطت الرحمانية بالعرش فلا نسبة له معها .

ثم فسر ذلك فقال :

[محقت الآثار بالآثار] .

فالآثار الأولى هى العوالم ، والآثار الثانية هى العرش ، فقد امتحقت الأكوان كلها فى عظمة العرش حتى صارت كالعدم .

[ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار] .

قلت : المراد بالأغيار هو العرش وما احتوى عليه من الآثار .

أو تقول : هو كل ما دخل عالم التكوين من العرش إلى الفرش ؛ أو ما فرض وجوده خارجًا عن العرش وأفلاك الأنوار : هى أنوار الذات والصفات ، فإذا امتحقت الأغيار وهى الآثار بأنوار عظمة الذات بقيت الأنوار ، وانفرد بالوجود الواحد القهار ، فأنوار الصفات هى أنوار الذات ، وأنوار الذات هى أنوار الصفات ، والله تعالى أعلم .

---

(١) طه : ٥.

(٢) الفرقان : ٥٩ .

أسباب الغفلة

[يا من احتجب فى سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار] :

قلت : السرادقات فى اللغة هى الأسوار المحيطة بالدار ، وهى هنا كناية عن الحجب القهرية ، وهى حجب العزة التى احتجب الحق تعالى بها عن عباده مع شدة ظهوره ، ومرجعها إلى دوائر الحس والوهم والغفلة والأكنَّة التى على القلوب ، وتنحصر فى خمسة أمور :

الأول : حب الدنيا الذى زرعه الحق تعالى بقهره فى قلوب الناس حتى انصرفت إليها الهمم ، وتاهت فيها العقول ، وتظلمت بصور خيالها القلوب ، واشتبكت فيها الفكر ، فلا تنصرف إلى غيرها ، وبهذا احتجب جل العباد إلا من عصم الله .

الثانى : ارتباط الأسباب مع مسبباتها ، والعوائد مع ما تعودت بها ، كتوقف أمر الرزق على حركة السبب ، والنبات على وجود الأمطار ، وغير ذلك من ارتباط الأسباب ، فظن الجهال أنها لا تنفك عن مسبباتها ، فحجبوا بها عن مسبب الأسباب ، والحكيم العليم يرزق من غير أسباب ، ويعطى بلا حساب ، وبهذا احتجب كثير من الناس فوقفوا مع الأسباب ؛ وحجبوا عن شهود رب الأرباب ، إلا من نفذت بصيرته من ذوى الألباب .

الثالث : الوقوف مع ظاهر الشريعة ترغيبًا وترهيبًا علمًا وعملاً . فقوم وقفوا مع الترغيب ، فانكبوا على العمل طلبًا للجزاء وهم العباد . وقوم وقفوا مع الترهيب ، فغلب عليهم الخوف وهم الزهاد . وقوم وقفوا مع ترغيب العلم ، فاشتغلوا بعلم الرسوم والحروف ، وتركوا علم اليقين والخشية والمعرفة وهم علماء الظاهر ، فحجبوا بالعلم عن المعلوم ، وهى معرفة الحى القيوم .

الرابع : الوقوف مع حلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة ، وهى سموم قاتلة لمن وقف معها ، وهى لأهل المراقبة ، وبها احتجب كثير من العباد والزهاد ، وقد تظهر لهم خوارق وكرامات حسية فتزيدهم حجبًا عن الله .

الخامس : ظهور أثر القدرة على هذه التجليات ، واتصافها بأوصاف

العبودية . كالفقر والذل والجهل ، والمرض والموت ، وغير ذلك من أوصاف البشرية التى سترت سر الخصوصية ، وبهذا احتجب بعض المستشرفين على الفناء فى الذات ، فرجعوا من حيث جاءوا ، والله قاهر فوق عباده :

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[1] .

فهذه سرادقات العز التى احتجب الحق تعالى بها ، فإن العزيز هو الذى لا يترقى إليه وهم طمعًا فى تقديره ، ولا يسمو إلى صمدانيته فهم قصدًا إلى تصويره . وقيل العزيز من ضلت العقول فى بحار عظمته ، وحارت الألباب فى إدراك نعمته ، وكلت الألسن عن استيفاء مدح جلاله . ووصف جماله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » اهـ .

[يا من تجلى بكمال بهائه] أى حسنه وجماله .

[فتحققت عظمته الأسرار] .

أى أسرار العارفين ، فدام سرورهم وحبورهم إلى يوم الدين ، ثم تتصل نضرتهم بنظرتهم إلى رب العالمين ، وأنشدوا :

سُرُورِى بِكُمْ أَضْحَى يَجِلُّ عَنِ الْوَصْفِ
وَقُرْبِى مِنْكُمْ بِالْمَوَدَّة وَالْعَطْفِ
وَأَنْتُمْ مَعِى حَيْثُ اسْتَقَلَّ بِىَ الْهَوَى
فَلِى بِكُمُ شُغْلٌ عَنِ الدَّانِى وَالإِلْفِ
سُوَيْدَاءُ قَلْبِى أَصْبَحَتْ حَرَمًا لَكُمْ
تَطُوفُ بِهَا الأَسْرَارُ مِنْ عَالَمِ اللُّطْفِ
رَسَائِلُ مَا بَيْنَ الْمُحِبِّينَ أَصْبَحَتْ
تَجِلُّ عَنِ التَّعْرِيفِ وَالرَّسْمِ وَالْعُرْفِ

---

(١) سبأ : ١ .

رَسَـائِـلُ جَـاءَتْنَـا بِـرَيَّـا جَنَـابِكُمْ
عَـوَارِفُ عُرْفٍ فَـاقَ كُلَّ شَـذَا عَـرْفِ

[كيف تخفى] عن بصائر العارفين .

[وأنت الظاهر] وحدك لا ظاهر معك .

قال تعالى : (هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) .

فالحق هو الظاهر ، لكن لا تدركه أبصار المخلوقين ، ولا يرى الحادثُ القديم ، ولا يرى الحق إلا الحق ، فإذا فنى الخلق الحادث وبقى القديم ، رأى القديم القديم ، وعرف الحق الحق ، فما دمت لم يغطّ الحق تعالى وصفك بوصفه ونعتك بنعته ، لا تطمع فى شهوده ومعرفته مع شدة ظهور نوره .

[أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر] .

الذى لا يخفى عليه ولا يغيب عنه شىء ، وهو المحيط بكل شىء .

[والله الموفق] إلى سواء الطريق والموصل إلى عين التحقيق .

[وبه أستعين] .

فإنه القوى المعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وصلى الله على سيدنا ومولانا (محمد) المصطفى الكريم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا دائمًا إلى يوم الدين .

خاتمة

نجز ما قصدنا جمعه بحول الله وقوته ، فإن وافق الحق والصواب فالمنة لله العلى الكبير ، وإلا فالعبد محل الخطإ والتقصير ، ولا سيما مع الباع القاصر والعلم القصير .

وأقول كما قال الشيخ خليل : وأعتذر لذوى الألباب من القصير الواقع فى هذا الكتاب ، وأسأل بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع ، أن ينظر بعين الرضا والصواب ، فما كان من نقص كملوه ، وما كان من خطإ أصلحوه ، فقلما يخلص مصنف من الهفوات ، أو ينجو مؤلف من العثرات ، وكما قال ابن مالك فى التسهيل : أعاذنا الله من حاسد يسد باب الإنصاف ، ويصد عن جميل الأوصاف ، وألهمنا شكرًا يقتضى توالى الآلاء ، ويقضى بانقضاء اللأواء : أى الشدة ، وكما قال فى حرز الأمانى :

* فَيَا عَاطِرَ الأَنْفَاسِ أَحْسِنْ تَأَوُّلاً *

وأنا أسأل الله تعالى أن ينفع به من كتبه أو طالعه ، أو حصل شيئًا منه أو سمعه ، أو عمل بما فيه ، وأن يكسوه جلباب القبول ، ويبلغ محصله كل مطلوب ومأمول ، بجاه خير الأنام مولانا (محمد) الشفيع المقبول ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وعترته وأحزابه ، أهل المحبة والوصول :

(وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وافق الفراغ من تبييضه عشية يوم الأربعاء ثامن جمادى الأولى سنة إحدى وعشرة ومائتين وألف ، وابتداء جمعه فى شهر محرم الحرام من ذلك العام ، وآخر دعوانا : (أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وصلى الله على سيدنا (محمد) خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، والحمد لله رب العالمين . اللهم صلِ على سيدنا (محمد) النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .